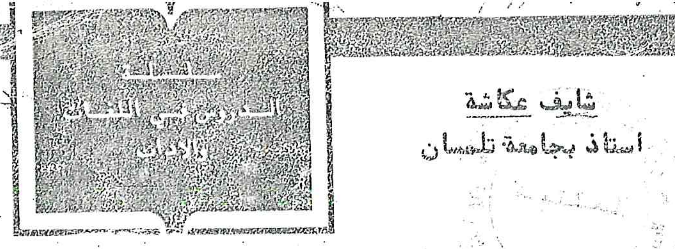


شايف عكاشة
استاذ بجامعة تلمسان

مدخل الى عالم الشعر المعاصر في الجزائر

قراءة مفتاحية منهج تطبيقي

ديوان المطبوعات الجامعية
الجزائر

810/235/3
307734 المكتبة

شايف عكاشة
استاذ بجامعة تلمسان

مدخل الى عالم الشعر المعاصر في الجزائر

قراءة مفتاحية منهج تطبيقي

ديوان المطبوعات الجامعية
الجزائر

المقدمة

© ديوان المطبوعات الجامعية : 10- 88
Codification : 4 . 09 . 2837

ليست هذه المقالات مجرد قراءات اولية لفهم بعض ملامح الشعر الجزائرى المعاصر فحسب ، بل هي محاولة متواضعة لفتح ابواب بعض القصائد وازالة لثام الحشمة عن وجهها الكئيب ، حتى يتمكن المتلقي من رؤيتها على حقيقتها دون ان يحجبها عنه قناع النقاد السياقيين الذين يطنبون - عادة - في الحديث حول النصوص الادبية ويتغافلون عن جوهرها ، مما يجعل اعمالهم باطلة وغير مفيدة . فهؤلاء يتكلمون كثيرا عما هو خارج النصوص الادبية من ظروف واسباب ، ولا يقولون شيئا عما هو داخلها . والنص الادبي بداخله لا بخارجه ، ووجوده يبدأ من حيث انتهت كتابته ، كما ان نهاية علاقة النص الادبي بمبدعه ومحيطه تبدأ من حيث بداية علاقته بالمتلقي .

ان النص الادبي يأخذ استقلاله مباشرة بعد ولادته ، وتبقى كل القراءات التي تفحصه مجرد نظرات عابرة ذات مفاهيم نسبية ، اذ لا يمكن لأي قارئ - مهما تسامت ثقافته - ان يتبجح فيقول : ان هذا النص يعني كذا ولا يعني كذا ... فالنص الادبي ذو دلالات خصبة ، تتوالد مع توالد الاحداث ، وتتناسخ بتناسخ الرموز اللغوية عبر تواتر الازمنة .

وفي الختام انبه الى انه سبق لي ان نشرت بعض هذه المقالات ضمن مطبوعة (نظرية الادب - الجزء الثاني -) ، ولما كان موضوع تلك المطبوعة لا يخدم غاية ما جاء في هذه المقالات فانني آثرت ان اعيد نشرها مع هذه المجموعة الجديدة من المقالات التي يختص موضوعها بالشعر الجزائرى المعاصر .

تلمسان : جوان 1987

رمــز اللقــاء

يقول الشاعر في قصيدة (واحة اللقاء) (1) :

التقينا
صدفة في واحة الدنيا
مع اللحن الشرود
فبكينـــا
للضياع المـــر
في ليل الاسى
عبر الشرود
اين كنــا
قبل لقيانا
على الدرب
نشيدا للوجود ؟ .

———

لم نكن ندري وجودا
لم يكـــن
ظنك ظني
عندما انشق الحجاب
فرأينا لوحات
ما احتواهـــا
منذ آمـاد كتاب
ولمحنـــا
اننا رسم سؤال
لم يزل في الليل
مبحـــوح الصدى
حتى يقفيه
جـــواب

———

1 — ديوان (واحة الهوى) محمد الاخضر عبد القادر السائحي — ش٠و٠ن٠ت الجزائر 1973
ص ص 61 — 64

ويمضي الدهر عنيــدا
وكلانا لم يكن يدري
على الدرب طريقا
واحتوانا
بعد تهوام لقــاء
وحــديث
واذا الصدفة سكرى
وضياء القلب يفشي
سرنا الغامض دهرا
فنطقنــا
لم يكن غيــرك
— يا حبي — الجواب

———

وتلاقينا
على درب الحياة
نغما كالبسمة الجذلى
مزيجا من جميع النغمات
لحنه الواجف تلبي
وصداه الهامس النشوان قبلك
فيضيئ الدرب
والعش يغدو
واحة خضراء
فيها الزهر والنحل
وفيها الماء والعشب
وفيها الحب يصفو
كلما نامت رؤاه
قال قلب :
انني دوما احبك
فيعود الحب للواحة احلى
ويعود الغائب الميمون اغلى

....

يعتبر القراء هذه القصيدة ومثيلاتها قصائد غزلية ، وينطلقون عادة في فهمها من غرض الغزل وهو المفتاح الذى يفتحون به ابواب القصائد الغنائية .

والدارس لا ينفي وجود علامات (الغزل) ، فالقصيدة مفعمة بما يؤكد ذلك ، بل يبدو ان موضوعها الاساسي هو (الغزل) ، ويؤكد هذا ما جاء في القصيدة من الفاظ وتعابير (التقينا — القلب — ياحبي — البسمة — الحب يصفو — انني دوما احبك — يعود الحب للواحة احلى ...)

في الفقرة الاولى ، يلتقي الشاعر بحبيبته صدفة ، من غير موعد في واحة الدنيا ، ويتساءل في الفقرة الثانية عن سر اللقاء وحقيقته ومكانه ، وفي الفقرة الثالثة تساءل عن كيفية اللقاء ، وعن الحافز الى هذا اللقاء ، وعن موقف الشاعر وحبيبته من هذا اللقاء الذى تمّ صدفة ، اما في الفقرة الاخيرة فيحاول الشاعر ان يؤكد ما جاء في بداية القصيدة من لقاء في واحة الدنيا التي اصبحت واحة خضراء يعيش فيها الشاعر وحبيبته في سعادة وحب متجدد دوما .

هذا فهم اولي لهذه القصيدة ، فهل كان الشاعر يريد ذلك ؟

لسنا ندري ... ولكن الذى نعرفه ان وراء هذه الدلالة الاولية دلالات اخرى تحتاج الى قراءات كثيرة .

قال الشاعر (التقينا) ، وكان هذا اللقاء (صدفة) ثم إن رد الفعل كان (البكاء) ، فكأنني بالشاعر يقول : التقينا فبكينا . ومن علامات اللقاء : السرور والبهجة والفرح ، وليس البكاء ، فهل معنى هذا أن مجيئ (البكاء) هنا كان لشدة الفرح الذى نتج عن اللقاء الفجائي الذى لم يسبقه انتظار او موعد سابق محدد ؟ ام انه جاء نتيجة الضياع المر في ليل الاسى ؟

مبدئيا لا يمكننا تحديد المدلول الحقيقي لعملية (البكاء) ، ولكن الشاعر يستمر في تأكيد سبب البكاء ، كان الشاعر وحبيبته يجهلان — قبل لقائهما — (الوجود) ، فهل (اللقاء) اعطاهما معنى خاصا للوجود ؟

قد يكون هذا المعنى هو (الحب) على أساس أن الشاعر وحبيبته يتفقان على ان

(الحب) احسن جواب عن سرهما الغامض الذى جمعهما بعد تهوام في درب الحياة ، وما هو هذا الدرب ؟ . انه واحة خضراء ، يصفو فيها الحب .

اللقاء ← البكاء (نتيجة الصدفة)

الحب ← الوجود (في واحة الدنيا او في واحة خضراء)

اللقاء بعد الفراق الطويل يعطي البكاء على الفترة او المرحلة الزمانية التي سبقت لحظة اللقاء ، فهو بكاء ممزوج بالفرح او الرضا عن المرحلة الحاضرة التي تمثل لحظة اللقاء . ومن ثم فعلاقة البكاء باللقاء هنا علاقة جدلية ، يربط البكاء باللقاء هنا ما يسميه الشاعر (الوجود) الذى يتفرع بدوره الى نوعين من الوجود :

- وجود زمكاني (اللقاء بعد الفراق ، أي الوجود بعد العدم)
- وجود فلسفي (اثبات الذات او الشخصية)

والنوع الاول من الوجود الزمكاني يسبب — عادة — البكاء ، وان كان البكاء — هنا — مجرد علامة او اشارة الى السعادة العظيمة التي يتعذر على الانسان ان يعبر عنها بالفرح الذى هو رمز السعادة . والفرح الكبير يولد البكاء كما يولد الحزن الكبير البكاء واحيانا الضحك .

اما النوع الثاني من الوجود في هذه القصيدة فيشير الى لون من الوجود الذاتي الذى يرتبط بما يسميه علماء النفس (صرخة الحياة) التي تعقب — عادة — خروج المولود من بطن امه ، ايذانا بلقاء في درب الحياة .

ان هذه العوامل الثلاثة : اللقاء ، البكاء ، الوجود، التي جمعها الشاعر في قصيدته ، يجمعها خيط واحد هو (الحب) الذى لم يكن غيره (الجواب) عن العلاقة الجدلية التي تربط عناصر القصيدة . فالحب ، وهو اساس (الوجود) في هذه القصيدة سبب (اللقاء) ، وكان الحافز الاساسي عليه ، فلولا هذا الحب لما كان اللقاء ، بل لما كان البكاء ايضا .

اللقاء
البكاء
الحب
الوجود

الوجود
اللقاء

← درب الحياة / واحة الدنيا ← صدفة

غير ان الحب الذى تم نتيجة الوجود كان — بمحض الصدفة — في لقاء على درب الحياة في واحة الدنيا التي يبقى الحب او الشوق اليها احلى ، لان الغائب المنتظر او الميمون يبقى — في عرف الشاعر — دائما اغلى .

فما سر هذا اللقاء ؟ ما دام الشاعر يعتقد ان الغائب الميمون اغلى ، وهل تم اللقاء الذى اشار اليه الشاعر اكثر من مرة في هذه القصيدة ؟

- التقينا صدفة في واحة الدنيا
- اين كنا قبل لقيانا
- واحتوانا بعد تهوام لقاء
- وتلاقينا على درب الحياة ...

فلو حاولنا أن نجمع ما تردد من الفاظ اللقاء في ديوانين فقط من دواوين الشاعر لوجدنا :

في ديوان (واحة الهوى) :

- بعد الحبيب فاين اللقاء   واين الملعب ؟
- يا قلب كم تهنا قبيل لقائنا   كم ضاع من شعري ومن احلامي
- وبم التقينا ولم نك ندرى
- نعم التقينا على الدرب نسري
- وهذا اللقاء يهز الجميع
- ومضى القلب يغني من اناشيد لقانا
- يا حبيبي طول عمري لست انسى روعة اللقا مع المجد العظيم

- من قلوب ضحكت اعماقها عند اللقاء
- ونشرنا بسمة اللقيا
- هاهنا كان لقاء بين ريم وسعيد ، كان اسطورة حب لم تزل لحنا جديدا ، يزرع الحب الجديد
- سوف يحلو الحب ان صفا بعد لقانا ..
- ذاك حب ظل ينمو بين ريم وسعيد ، يتغنى بلقاء طاب حب وعهود
- فرحت بالحب ثملى واستجابت للنداء كل عين كحلت بالسحر في حفل اللقاء

في ديوان (اغنيات اوراسية) (1) :

- وتلاقي الاخاء والحق والايمان   والمجد في طريق الجهاد
- خفقات الحب الحسان   لقاء ومرام
- ولم يتح لنا لقاء ساحر
- حتى التقينا صدفة
- ودعني اذب .. في اللقاء الخصيب
- اذ كان الشوق الى لقيا   جبل الثوار بها يزرى
- سنلاقي الموت والتدمير في كل الدروب
- سنلاقي ، كل شئ في سبيل النصر ، يا نصر الشعوب
- كيف نلقى الموت حتى في الحياة ؟
- مرحبا بالموت ، بالتدمير ان كانا سبيلا للحياة
- ولقاء الموت في انحاء فتنام شعار .. للكبار .. للصغار .

1 ـ ديوان (اغنيات اوراسية) محمد الاخضر عبد القادر السائحي ـ ش.و.ن.ت ـ الجزائر عام 1979

نستخلص من هذه المجموعة الطويلة من عناصر (اللقاء) أربع دلالات أساسية لعملية اللقاء في المعجم الشعري عند السائحي :

1 ـ الشوق الى اللقاء والراحة النفسية التي تصاحب هذا الشوق الذى يمثل المسافة الزمانية التي تسبق (اللقاء)

2 ـ اللقاء بدون موعد على درب الحياة (واحة الدنيا ـ طريق الجهاد ـ الحزب ـ جبل الثوار ...)

3 ـ فرحة اللقاء وما يصاحبها من استرجاع لذكريات ما قبل اللقاء

4 ـ لقاء الثورة الولود والمجد الخصيب

نستنتج من هذه العناصر ان البعد الاساسي لفكرة (اللقاء) عند الشاعر جد معقد فهو يرتاح الى فترة ما قبل اللقاء ، ومعنى ذلك انه يفضل ان يعيش على احلام اللقاء ويخشى مواجهة اللقاء ، ولهذا كان اللقاء عنده بمحض الصدفة ، انه ـ على الرغم من تشوقه الى اللقاء ـ يفضل في قرارة نفسه (اللالقاء) . ونتيجة هذا ايضا ، كان اللقاء ـ دائما ـ في اماكن مبهمة ، فهو ـ غالبا ـ يكون على درب الحياة ، والحياة تتضمن الموت ، او هي تشير الى الفناء وهذه سنة الحياة ايضا ، لكل بداية نهاية ، فاذا تمّ اللقاء فمعنى ذلك ، هناك فراق قادم ، لا حول للشاعر على منعه او تحويله عن طريقه . وهذا سر آماله في استمرار اللالقاء (ويعود الغائب الميمون اغلى) ، وهو ايضا سر فرحته بفترة (ما قبل اللقاء) لانها رمز سعادته التامة واشارة الى خوفه مما ينتظر اللقاء من فراق وافتراق

ويشرح لنا هذا سبب اصرار الشاعر على ان اللقاء يتم صدفة ، وبدون سابق موعد ، ومعنى هذا ، ان الشاعر ـ انطلاقا من نظرية الاستمرارية نحو الفناء ـ لا يفكر في اللقاء الحقيقي ، بل هو يحاول ان يتلافى اللقاء ، ويظل يعيش في حلم اللقاء الذى يفضله تغشى الشاعر سعادة كاملة .

اذا كان الشاعر يخشى هذا اللقاء ، ويتمنى عدم اللقاء ، فما سر مطالبته لحبيبته ان تتركه يذوب (في اللقاء الخصيب) ؟

لعل مفهوم هذا النوع من اللقاء يختلف عن مفهوم النوع الاول من اللقاء ، فاللقاء الاول لقاء ذاتي او شخصي ، أى زمكاني ، يلتقي الشاعر فيه مع حبيبته (ولا يقصد بالحبيب هنا مجرد فتاة ، بل قد يقصد به الحياة او الوجود ..) ، اما المفهوم الثاني للقاء ، فيتمثل في العنصرين (الثالث والرابع) ، ولذلك صاح الشاعر — في أكثر من مرة — بما يشبه هذه الصيحات :

— سنلاقي الموت والتدمير في كل الدروب
— سنلاقي كل شئ في سبيل النصر
— ومضى القلب يغني من اناشيد لقانا
— من قلوب ضحكت اعماقها عند اللقاء ..

ومعنى هذا ان الشاعر لا يخشى هذا اللقاء ، على الرغم من انه مواجهة حقيقية للالقاء ، فهو من جهة لقاء الموت والفناء ، ومن جهة اخرى لقاء بأحلام الماضي واحداثه وكلا اللقائين بعيدان عن واقع الشاعر وحاضره ، فاللقاء الاول مرتبط بالمستقبل ، فالشاعر يحب لقاء الثورة من أجل الوصول الى لقاء مابعد الثورة ، وهو قصبة السباق بالنسبة له ، واللقاء الثاني مرتبط بالماضي ، اذ ان الشاعر يتغنى بما كان قبل اللقاء ، وليس بما هو ساعة اللقاء . ولكن اللقاءين معا يشيران الى مدى لهفة الشاعر على بلوغهما ، فاللقاء الاول يوحي بان الشاعر يحاول ان يسترجع رحى الزمان الى الوراء لكي يعيش على انقاض ما سبق اللقاء ، اما اللقاء الثاني (لقاء الموت) فانه مجرد محاولة من الشاعر في مسابقة عجلة الزمان ليعيش في جو الفرح الذى سيعقب (لقاء الموت) اى الحرية والاستقلال ، باعتبار الشاعر عايش مرحلة الثورة المسلحة .

ولو اعدنا قراءة رمز اللقاء في ضوء القصائد التي قيلت قبل الاستقلال والقصائد التي قيلت بعد الاستقلال لوجدنا ان فكرة التشوق الى اللقاء تتمثل في القصائد التي سبقت الاستقلال ، بينما تمثل القصائد التي كتبها بعد الاستقلال محاولة الشاعر الرجوع الى مرحلة ما قبل اللقاء (وهي مرحلة الثورة) على اعتبار انها مرحلة تستحق — في نظره —

ان يظل يحلم بها ولو اصبحت واقعية .

ومن هذا يتبين لنا ان اصرار الشاعر على اللالقاء نوع من الهروب من اللقاء الذى قد يعقبه الفراق (على اعتبار ان هذا الفراق فراق ذاتي او شخصي) او قد يعقبه اللالقاء (على اعتبار ان هذا اللقاء يصبح عند قوم مجرد " حديث لزعيم ، او لقاء في خلية حزب ، او مجرد شعار ... ") او بعبارة اخرى ، تخوّف الشاعر من ان لا تكون ثمرة اللقاء (والمقصود به هنا : الحرية والاستقلال) " الاخاء والحق والايمان والمجد في طريق الجهاد " .

وطريق الجهاد هنا اشارة الى مرحلة ما بعد اللقاء السياسي (الحرية او الاستقلال) وقد وضح الشاعر سبب قلقه من هذه المرحلة في قصيدته (ابصقوا على وجه البيروقراطيين) التي مطلعها :

اخوتي عار علينا
أى عار ،
بعد عشر من شموع الفجر
ألا تفضح الشمس النذالة ..

نعود الى قراءة قصيدتنا (واحة اللقاء) في ضوء ما توصلنا اليه من حقائق وابعاد لفكرة اللقاء عند الشاعر محمد عبد القادر السائحي :

يقول الشاعر (انه التقى بحبيبته صدفة وبكيا معا للضياع الذى سبق هذا اللقاء ، وانهما كانا قبل لقائهما على الدرب مجرد نشيد للوجود ، ولم يكونا يدريان قبل هذا اللقاء وجودا ، لانهما كانا مجرد رسم سؤال . ثم يعود فيقول انهما كانا يجهلان الطريق الذى يوصلهما الى بعضهما ، ولكن الدهر — على الرغم من تعنته — لم يستطع ان يمنعهما من اللقاء ، لانهما مرتبطان بشئ أقوى من الدهر ، وهو (الحب)) .

واخيرا يصل الشاعر الى ان هذا اللقاء حصل على درب الحياة بفضل الحب الذى يجمع بين قلبيهما .

تلك بصورة عامة الدلالة المباشرة او السطحية التي قد يستخرجها القارئ من هذه القصيدة ، ولكن القارئ الجدّ يلاحظ — بلا ادنى شك — ان هذه الدلالة لا توفي بحق ما تريد تقديمه هذه القصيدة .

فاللقاء صدفة في واحة الدنيا ، ومع اللحن الشرود ،والبكاء على ما سبق هذا اللقاء او على اللقاء نفسه ، ثم التساؤل عن مكان وجودهما قبل اللقـاء ... الى غير هذه التعابير اللغوية التي ان دلت على شيء فانما تدل على وجود ابعاد عميقة تختفي وراء الدلالة المباشرة .

قلنا —فيما سبق — ان رؤية الشاعر في فكرة اللقاء معقدة ولهذا تحتاج الـى صبر من اجل تفكيك هذا التعقيد .

يؤكد الشاعر في بداية القصيدة بان عملية اللقاء قد تمت ثنائية في وقت واحد وصدفة :

الشاعـر ← [اللقاء / الصدفة] → الحبيب

ثم تساءل الشاعر عن مكان وجودهما قبل اللقاء ،وظل هذا السؤال بدون جواب على اعتبار ان الشاعر وحبيبته لم يكونا يدريان وجودا ،وان كل ما عرفاه هو انهما مجرد رسم رسم سؤال بدون جواب . وعلى الرغم من هذا الضياع ، شاءت الصدفة ان يلتقيا على درب الحياة ، ولكن الشاعر يظل متعلقا بالواحة وبالميمون الغائب . وذلك كلما استـراح القلب فني النهر :

" كلمـا نامت رؤاه

قال قلب :

انني دومـا احبك .

نستشف من هذا —اذن— ان فكرة اللقاء لم تتم بالصورة التي تمنى الشاعر اوكان يرغب ان تكون عليها ،وهذا سبب تعلقه بالغائب الميمون ، فاذا كان اللقاء قد تم فهو

لقاء على درب الحياة ،والدرب (1) اشارة الى بداية المسيرة ، ومعنى ذلك ان اللقـاء بالنسبة للشاعر مجرد بداية الطريق . ومن ثم فان اللقاء الكامل لم يتحقق بعد .

واكتفي هنا بالاشارة الى ان رمز اللقاء في هذه القصيدة يعانق رموز اللقاء في قصائد الشاعر الاخرى ، وان اللقاء في هذه القصيدة ليس مجرد لقاء بين عشيقين بعد طول فراق وانما هو لقاء عدم بوجود او لقاء لاشيء بشيء او لقاء ثورة باستقلال ...

1 — تحتاج كلمة (الدرب) — لكثرة ترددها في شعر الشاعر — الى تحليل واسع ،ولكني آثرت ان لا أتعرض اليها حتى لا اضطر الى تفريع تحليل هذه القصيدة ،مع العلم ان من المفروض متابعتها ومعرفة ابعادها حتى تكتمل القراءة الصحيحة اللازمة

التحـــدى

قال الذكتور محمود الربيعي في مقدمة كتبها لديوان الشاعر محمد صالح باوية " عنوان هذه المجموعة الشعرية يشير في وضوح الى العالم الذى يشغل الشاعر ويستوعب تجربتـه الفنية ، وهو عالم لا يستطيع اى فنان مكترث ان يتجاهله ، انه الوطن والانشغال الشديد بهموم البيئة التي يضطرب فيها الانسان بين ابناء هذا الوطن ، انه التبشير بالحريـة ; والبحث الدائب عن العناصر الاصيلة التي تشكل الشخصية القومية . انه الوعي الكامـل بمشكلات الماضي والحاضر والمستقبل ..)

وقال الشاعر محمد صالح باوية في قصيدة (الصدى) (1) :

... وتمضي السنون
واني احس
احس الاسي وحبيس الالم
تدفق نورا ودمعا ودم
يفجر آمالنا الا خلقة
فيدنو الصدى ...
يشق السنين ، يشق المدى
صدى ضحكاتي واشواقيه
يداعب زيتونتي الغاليه
يعانق اهلي واقرانيه
بكـل مسـاء .

... وتمضي السنون
واذكر جدى

(1) ديوان (اغنيات نضالية) ش.و.ن ت الجزائر

ينوّمنا باغاني الطفولة
وتنسل من شعره الابيض
كنوز الحكايات .. ذكرى البطولة
وتضحية الفارس الاسمر
بليلة حب
فيهزمنا الشوق يا طفلتي
ويعتصم الحب بالثقة
بكل حكاية

... وتمضي السنون
واذكر يا طفلتي الوادعة
بعينيك انت ...
بعينيك ترعش مأساتيه
وترقد (يافا) و(حيفا) واصحابيه
بعينيك عمق كثيف الظلال
رهيب ، يخلف الف سؤال
تطاردني
تصارع ليلي وغطرستي
تمزق ليلي ..
وتغزو وجودي في خيمتي .

تبدأ القصيدة – كما هو واضح – ببداية مفتوحة ، تتمثل في مضي السنين واستمرار حركة الزمن بلا توقف او تراجع .

وضع الشاعر قصيدته في ثلاث فقرات ، كل فقرة ترتبط بفترة زمنية معينة .

– الفقرة الاولى : (وتمضي السنون .. واني احس) تمثل تحسر الشاعر على ما يراه ويحسه به في حاضره

– الفقرة الثانية : (وتمضي السنون .. واذكر جدى) يسترجع فيها الشاعر ذكريات طفولته ، ومن خلال هذه الذكريات نتعرف على ما كان يجيش في صدره وهو طفل .

– الفقرة الثالثة : (وتمضي السنون .. واذكر يا طفلتي الوادعة) يصور فيها الشاعر موقفه من طفلته ، بل موقف طفلته منه .

تلك هي المواقف الثلاثة التي حاول الشاعر ان يقدمها للقارئ من خلال هذه المقطوعة الشعرية القصيرة .

فما هي أبعاد هذه المواقف ؟ ؟ ؟

يربط الشاعر مرور الزمن باحساسه بالوضع السائد الجامد ، فالزمن يمر ويمر ولكن واقع الشاعر ساكن لا يتحرك ، لذلك كان احساسه بالاسى والالم شديدا . انه يرى سكونه ويحس به احساس المتقاعد الضعيف الذى لا حول له ولا قوة ، وان كان حبيس الالم قد تدفق (نورا) الى جانب (الدمع والدم) ونجّز الامال المغلقة .

يتابع الشاعر متذكرا ايام طفولته ، يوم كان جده ينومه (باغاني الطفولة ، وحكايات البطولة) ، ان عملية التحسر والالم ورثها الطفل عن جده ، فجده كان يحكي لحكايات ترتبط بالبطولة والتضحية (تضحية الفارس الاسمر) ، ولكن الشاعر الطفل كان أشجع منه كشاعر كهل . كان الشاعر الطفل (القاصر) متحمسا لسماع الحكايات ، وكان شعوره يوازى شعور البطل في كل حكاية ويساويه ، فهو كالفارس الاسمر الذى ضحى من اجل تغيير مسيرة السنين ، فالثقة بالنفس عند الشاعر الطفل موجودة ، بينما اكتفى الشاعر الكهل بالتألم والتحسر والعيش على الامال (المغلقة) .

ثم ان الشاعر الطفل كان يتشوق الى تغيير حركة السنين في حين اكتفى الشاعر الرجل او الكهل بالبكاء على (زيتونته الغالية وأهله واقرانه) ولم يستطع ان يجاهر بالبكاء .

انه يبكي في (الليل) فقط ، عندما تسهو عيون الزمن عنه ، فعملية حبس الالـــم ملازمة لعملية البكاء في الليل .

ما علاقة مأساة الشاعر الكهل وشعوره بالثقة وهو طفل بمأساته كربّ أسرة تعيش بين امواج الزمـن ؟

ان السنين مرت ، ولا تزال تمـر ، ولكنَ الشاعر لا يزال قابعا في مكانه الذي تربى فيه وترعرع ، وقضى جل ايامه ، وهو يشرف على الهلاك من تقادم سنه ومرور السنين امامه ، الا ان في هذه المرة ، هناك عيون تنظر اليه باستحقار واستخفاف ، وتطارده بالسؤال عـن سبب تقاعده ومكوثه جامدا في مكانه .

ويبدو ان الشاعر العجوز لا يجد جوابا شافيا يرّد به وخز الضمير ويهدئ من مأساته التي مزقت ليله وغزت وجوده في خيمته ...

يبدو من هذا ايضا ان الشاعر يحاول ان يضع امام القارئ ملخصا لموقف الانسان العربي الفلسطيني من مصيره ... ذلك ما تعلنه فقرات القصيدة ، غير انها تحتوى على اشيـــاء اخرى أبعد من مجرد تصوير الشاعر لحقيقة تاريخية يعيشها الانسان الذى يرزح تحت نير الاستعمـــار .

ان تكرار عبارة (السنون) بالاضافة الى الحسرة على الماضي والالم المتعلق بالحاضـــر والذل الذى ينتظره في المستقبل ، فضلا عن وخز الضمير الذى سيعانيه في المستقبل .. كل هذه العبارات تعطي دلالات بعيدة عن مجرد تشخيص لواقع انسان يعاني من هيمنـــة الاستعمار . ان التحسر على الماضي شئ معروف عند كل من لم يقم بواجبه في وقتـــــه المطلوب ، غير ان الشاعر لا يتحسر هنا على ماضيه فحسب ، بل هو يتحسر على ما سيأتـــي ايضا ، ذلك فضلاً عن تحسره على حاضره . لذلك فالحسرة على الماضي جائزة ، ولكـــن المشكلة تكمن في الحسرة على الحاضر والمستقبـــل .

مـا سبب تحســر الشاعــر على حاضره ومستقبله ؟

ان الشاعر رجل عراف ، يستكنه خبايا المستقبل ، وهو رجل منطقي ، يعرف نتائج الحاضر

كما عرف نتائج الماضي ، ومن ثم فان ما يقوم به في الحاضر هو الذى دفعه الى التحســـر على ما مضى وما سيأتي ويصبح ماضيا . ولكن هذا الماضي الآتي من نصيب الخلف ، وما ذنب هذا الخلف ، اذا لم يترك له السلف قاعدة ينطلق منها في مسايرة الزمـــن ومقارعته ... ذلك ما جعل الطفلة تطارد اباها بالسؤال عن مصيرها .. في هذا الوجـــود المجهول .

ان السنين قد مضت وهي تمضي وستمضي ، ولقد مضت واخذت معها الاجداد ، وهي تمضي وتأخذ معها الابـــاء ، وستمضي وتأخذ معها الاحفـــاد ، وعندئذ لا تبقى ســوى تلك العيون البريئة التي ستغزوها السنون في (خيمتها) ايضا .

موضوع القصيدة هو : ان فوات السنين شئ عادى بالنسبة لبطل هذه القصة الشعرية ؛ فالمستقبل — في نظره — قد مضى وفات ، كما مضى الحاضر والماضي من قبل .

ان فكرة فوات الزمن ترتبط بفلسفة الشاعر ، وهي ان (الزمن يمضي اذا لم يجد ما يمنعـــه عن المضي) ، يقول في قصيدة (التحدى) :

— اتحدى ، اتجدى ، بزماني ، بوجودى ... في قنالي .. اتحدى

— اتحدى عاصفات زرعت ارضي خرابا وعداوات وحقدا

— فانا الشعب سأبقى ... وسأبقى صامدا كالطود دوما اتحدى ...

ولكن الشاعر اكتفى في قصيدة (الصدى) بعملية التذكر او الاسترجاع ، وهذه العمليـــة لا توقف مسيرة الزمن ، وانما تكتفي بحساب المسافة التي قطعها الشاعر ، ونتيجة ذلـــك كان يشعر بالتحسر والالم على الماضي ، مع العلم ان حاضره ومستقبله يقعان — مسبقـــا — في المسافة الماضية ، فالزمن قد قطعهما ايضا قبل ان يقطعهما الشاعر القابع .

ولكن المتمعن في ديوان الشاعر يجده متشبثا بعملية (التحدى) ، فهو لا يقف لحظـــة ليقول لنا يجب علينا — لكي نوقف مرور السنين — ان نعتصم بالتحدى .

في ضوء فكرة التحدى يتجلى لنا مجئ الكلمات (النور ، الدمع ، الدم) ، فالالـــم لم يبق مكتوما ، وانما تحدى الخوف من الكابوس الذى يحيط به ، وتفجر او استيقظ ، وكانت نتيجة هذه اليقظة تداخل الدمع مع الدم الناتج عن تفجير الامال المغلقة ، ولهــــذا

التداخل صدى او شرارة : (اذا التقى السالب / البكاء / مع الموجب / الدم) ٣٧
نتجت شرارة ، كان تعبير الشاعر عنها بكلمة (نور) . والنور لا يأتي عن طريق الاحساس بالاسى او البكاء ، وانما يحتاج الى بذل الدم الذى عبر عنه الشاعر في قصيدة (الانسان الكبير) بقوله :

يا جراحي
أوقفي التاريخ ، انا نبع تاريخ جديد ...

فحقيقة التحدى تكمن في الدم المتدفق الذى في امكانه ان يوقف مسيرة التاريخ او السنين ، واذا ربطنا فكرة الدم المتفق بفكرة (تضحية الفارس الاسمر) نحصل على (نبع تاريخ جديد) ، وعندئذ تستيقظ (يافا) و(حيفا) والاصحاب من سباتهم الطويل الذى امتد من زمن الفارس الاسمر (وهو زمن الاسلاف) الى زمن تدفق الدم الذى يمثل الزمن القادم المجهول ، الذى لم يأت بعد ، ولا يمكنه ان يأتي الا اذا غسلنا طريق السنين من (الذل) و (الدمع) وعوضناهما بالغطرسة والدم المتدفق ، وفي حالة ما اذا تم هذا ، سيشف المدى صدى الضحك وسيكون في امكان الشاعر ان يداعب زيتونته الغالية في أمان واطمئنان ، ويسهل عليه ان يعانق اهله واصحابه ، وعندئذ يزول ذلك (العمق الكثيف الظلال الذى يخلّف ألف سؤال يطارده الشاعر في وجوده) .

ماضي
حاضر
مستقبل
الشاعر الطفل متحمس الى تغيير مسيرة الزمن
الشاعر الكهل يتحسر على الماضي ويبكي على الحاضر ويحب تغيير المستقبل
الشاعر العجوز وتأنيب الضمير

السكون
التحدى
النور
الماضي والحاضر والمستقبل زمن الدمع والذل
المستقبل المجهول (مابعد المستقبل) زمن تلاقي الدمع مع الدم

اكتفي هنا بهذه المحاولة ، وهي مجرد بداية لقراءة هذه القصيدة ، وعلى القارئ اذا أراد متابعة تحليل هذه القصيدة ان يبحث في علاقة الرموز التي ستوصله في النهاية الى نتائج قد تكون أبعد بكثير مما توصلنا اليه في هذه القراءة الاولية

بين الحلم والواقع

احمد حمدى شاعر طليعي ،غلب على موضوعاته طابع الغضب والتمرد ... ولعل ديوانه (قائمة المغضوب عليهم) أفضل ما يؤكد هذا الرأى ،فلقد (امتطى فيه الخيال المباح .. وهاجر في الفجر.. نحو الموت ... بعيدا عن الحب) (1) . انها (احلام القصيدة) أخذت (تتفجر في ذاكرته) (2) . والمثل الشعبي يقول (من يعيش يشوف) .

لا أدعي انني سأقرأ قصيدة (موجز الاخبار في حجم المسألة) (3) في ضوء هـذا الغرض ، وانما قد يكون لهذا الرأى أثرما على هذه القراءة .

اسمك كان المبتدأ
وكانت النهاية السقوط في العينين
كان الحلم اولا بحجم الارض
فيها الشجر الواقف كالجبال
والتماثيل التي ارتكبت في حضورها الحب
وفيها الموت والحياة
فيها الساقطون والرافضون
فيها المطر الصيفي
فيها الفقراء
ثم استحال الحلم ورقا خريفيا
تساقطت اجفانه في الوحل
كانت الوحوش مطرا ـ يحترق
الزيت ،وفي المسام
يحرق العرق .
اسمك كان المبتدأ

---

1 ـ قصيدة (أسوار قيصرية ...) الديوان (قائمة المغضوب عليهم) ش.و.ن.ت/الجزائر عام 1980 / ص ـ 53 ـ 54
2 ـ قصيدة (الشهيد الذى لم يمت) الديوان / 86
3 ـ الديوان 5 ـ 10

يا امرأة كالشمس
يا غزالة الصحراء
يا ادغال افريقيا
تنفجر الشهوات .. انكسرت اعمدة الضوء..
تحول الحب رصاصا .. زخت السماء
انثقب القمر
تساقط الورد ،بكى الحمام ،انحنت النخلة
في عجاجة المساء ، سافر الوجه الغريب
انتحر القدر يا امرأة كالشمس ..
يا ادغال افريقيا ..
يا غزالة تدخل لب القلب دون رخصة
تكتب شيئا فوق الصفحة الاولى
تحاور الجبين لحظة
تنسى العيون في المغارات ،تنام فوق الطين ،
ترتمي فوق الرصيف الاخر ـ الممقوق
ترتجي / ترحل فجأة / اقتحم الصمت / البكاء : آه
ابعد البعداء
من كان بعيدا في محل قربه

ـ ـ ـ

يكبر شكل الحلم في العينين
كنت مطرا
كنت ثمارا في الدوالي دانية
كنت نخيلا
كنت في شفاه الصبية بسمة واملا

كنت الى العشاق قمرا

وكنت للثوار بندقية

حزام خرطوش ٠٠ تمردا ٠٠ حرب عصابات

وكنت غضبا

يكبر شكل الحلم في عيون فقراء وطني

تحترق المراحل ــ الحواجز

الحلاج يغزو حلقات الذكر

تنطلق الثورة من رصيف الشارع الايسر

يمزق الاشخاص ــ الورق المقوى

يجادلون الموتى

في شرعية النظام

في ايديولوجيات المعاصرين ،

تنزع الستائر السوداء من نوافذ البيوت

يخرج يونس من بطون الحوت

فجأة ينتحر السكوت :

اخبك ٠٠ ان الوجد يملأ خاطرى   وعيناك في دنياى فيض مشاعر

تمادت في البعد الضبابي فانحنت   أماني اغصانا بدون ازاهر

جوادى بأفق الغيب يطعنه الدجى   وعاد بلا سرج جريح الخواطر

فامضغ صبرى ٠٠ مات ايوب بالاسى   واقرع سني ٠٠ يا شقا كل صابر

فان السموات التي امطرت اسى   لتمطر للثوار نصر الجزائر

وحدك كنت تغزو حلقات الذكر

كنت / في بغداد / في القصبة / في دمشق

في شوارع المدينة

يداك في معطفك الجلدى

تبكي في سواحل البلاد

تضحك صادقا او كاذبا

في ساحة الثورة والتحرير

تملأ شعور

بالموت ٠٠ بالدمار ٠٠ بالغربة

احن للبكاء ٠٠

كان في الحان شاعر   يملأ الحان بالغناء

عاد للارض مرة   فرأى الناس في شقاء

بعضهم حاكم بلا   حكم وبعضهم ببغاء

فرمى العود وانصرف   يملأ الحان بالبكاء

ودعاني السى ٠٠ الى   ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

ولم يكن مستحيلا   بان يصير المجاهد ؟

" كانت النهاية السقوط في العينين " أى سقوط ؟ ليس من السهل تحديد فحواه ، بدأت القصيدة بنهايتها ، السقوط في العينين ، جاء في نهاية المطاف في نهاية حلم ، كان (بحجم الارض) ، ثم (استحال ورقا خريفيا تساقطت اجفانه في الوحل) .

الحلم شيء مرتبط بالمستقبل الذى اصبح في زمن الشاعر حاضرا واقعا تشاهده العين ، ولكن المفارقة تكمن في ان ما كان يحلم به الشاعر يختلف عما تحقق واصبحت تراه العين .

فلقد كان الحلم (مطرا وثمارا ، ونخيلا ، وبسمة امل ، وقمرا للعشاق ، وبندقية للثوار ، وتمردا للاحرار ٠٠٠) ، واصبح الحلم (جوادا بلا سرج ، جريح الخواطر ٠٠)

فلولا عظمة شكل الحلم في (عيون الفقراء) ما (نامت العيون فوق الطين) ولا ما انحنت النخلة) ، ولا ما (تحول الحب رصاصا) ولا ما (تساقط الورد) ، ولا ما (بكى الحمام) ولا ما (انتحر القمر) ولا ما (انطلقت الثورة من رصيف الشارع) ٠٠٠٠

ان حجم الحلم في العين ـ وهو (حلم من الاوراس) (وقّعه الوعد على صفحات العمر) (1) بحضور (الرفاق الصامدين) (2) ـ كان سبب كل الانجازات التي تحققت (في ساحة الثورة والتحرير) .

رغم هذا فان نهاية الحلم كانت سلبية .. انها السقوط ، سقوط ملأ شعور الشاعر (بالموت .. بالدمار .. بالغربة ..) .

عاش الحالم الموت والدمار والغربة في سبيل ان يحقق الحلم ، وتراه العين ، وتحقق حلمه ، وذهب ليجني ثماره ، فرأى (في شقاء بعضهم حاكم بلا حكم ، وبعضهم ببغاء) ولم ييأس الشاعر مما حصل لحلمه ، بل مضغ صبره واقتحم الصمت ، وغزا (حلقات الذكر) التي يتردد فيها ان (السموات أمطرت للثوار نصر الجزائر) ، وان (النخلة العاقر تثمر) و (الجبل الصامد ينحر) و (المطر الغامر يحشر) (3) .

ان هذا غير مستحيل في (ايديولوجيات المعارضين) الذين اماتوا (ايوب بالاسى)؛

ـ مجادلون يدعون ان الحلم (الاستقلال) جاء هبة من السماء ، وهؤلاء تنكروا (للمجاهد (ولم يكن مستحيلا بان يصير المجاهد ؟؟؟) ، وظلوا يرفضون كل ما له علاقة بمشقات الحلم ومعاناة وضعه .

ـ ومجادلون رأوا ان الحلم (الاستقلال) جاء ثمنا لدم الشهداء الذين سقطوا في طريق الحلم ، وهؤلاء لا يزالون يعيشون على انقاض ماضي الحلم (من الثورة وللثورة) ، ولذلك يجب ان يكون (شارع الاستقلال) اضيق من ساحة الشهداء ، يقول الشاعر :

ما زلت أجوب الشارع
ضيق شارع الاستقلال
فسيحة ساحة الشهداء (4)

احتار الشاعر ، هل يجادل هؤلاء كما كانوا (يجادلون الموتى) (5) ، على الرغم

1 ـ قصيدة / قيثارة الرعد / 75 ـ 76
2 ـ قصيدة / الشهيد الذى لم يمت / 85
3 ـ قصيدة / ابعاد / 13 ـ 14
4 ـ قصيدة / مقاطع من رسالة خاصة ص / 63
5 ـ طلب الشاعر من الشهداء الراقدين الا يحزنوا عندما يسمعون هذا النبأ (قصيدة / يطلع الراقدين / 79 ـ 81)

من ان هذا (ابعد البعداء) : ؟ ام ينتحر كما (انتحر السكوت) ويترك (المجاهد) في (قائمة المغضوب عليهم) (1) . ؟

لم يعد هذا مستحيلا في زمن مابعد الحلم ، الزمن الذى (منعت فيه .. حتى المراثي) (2) ، زمن السرقات والخيانات (3) :

سرقوا عينيك
سرقو قلبك
سرقوا شعبك (4)

لقد حزن الشاعر حتى انفجر ضحكا :

يجبرني حزني
ان اضحك في وسط الشارع
اضحك .. اضحك .. اضحك .. (5) .

لم يكن الشاعر رجلا سلبيا ، لقد تصدى رافضا لهذا (الزمن المتعفن) زمن السقوط ، اذ اخذ يصرخ : (يا زمن الوصل .. تعال .. تعال ..) (6) .

يعرف الشاعر جيدا ان الزمن لا يعود ، وان سقوط الاندلس لن ترجعه يوما آهات الندّاب المتحسرين . فما السرّ إذن في اصراره على ضرورة عودة زمن الحلم ؟ ؟

لقد كانت (الوحوش) في زمن الحلم (مطرا) ، وسبق ان عرفنا ان (الحلم) ذاته كان مطرا :

مطر ← الوحوش
مطر ← الحلم

1 ـ عنوان الديوان وهو ايضا عنوان قصيدة / 55 ـ 59
2 ـ قصيدة / الاخضر في تعليق واحد / 39
3 ـ قصيدة / ديك الجن في المنفى / 26
4 ـ قصيدة / ابعاد / 11
5 ـ قصيدة / مقاطع من رسالة خاصة / 63
6 ـ قصيدة / قائمة المغضوب عليهم / 57

ان تحقق الحلم كان نتيجة ما بذلته الوحوش . والوحوش أناس لا يعرفون تعدد السبل والاتجاهات ، هدفهم واحد ، انه نهاية الطريق ،نهاية الحلم . ومن ثم كانت منيتهم واحدة (لا تنفجر ابدا شهواتهم ، ولا تتكسر اعمدة ضوئهم ...) هدفهم واحد ، هو اسقاط المطر في نهاية المطاف .

لقد كان سقوط المطر وعد الوحوش الاول وعهدهم الاخير ، وكان هذا واضحا كالشمس، في زمن الحلم ،اسمه كان (المبتدأ) ، ولم يكن هناك شئ اخر غيره ، وبفضل ذلك تحقق الحلم ، ونامت الوحوش تحت التراب هادئة مطمئنة ...

وبدأ الحلم الجديد ، حلم ما بعد الحلم ،الحلم الذى خرج فيه (يونس من السجن) ، ونزع (الستائر السوداء من النوافذ) واصبحت العين ترى يمينا وشمالا ،خلفا وأماما ، ترى الوحوش الجديدة ، وقد انفجرت شهواتها ، وكشرت عن انيابها ...

فيا (شقا كل صابر ..

انني اكذب ان قلت لكم ...

لا بأس ..

والدنيا بخير ... (1) .

لقد كانت الوحوش مطرا كالحلم ،في عهد الحلم ،فسقى غيثها ارض الحلم ،وذهب زمن النصل ،واتى زمن الوصل ،ولكن الوحوش الجديدة اصبحت سيلا عرمرما جرف معه جثث الوحوش الراقدة ، ورمى بها في قائمة المغضوب عليهم .. انه جزاء سنمار .

---

1 ـ قصيدة / ابعاد / 12

الاغتراب

احلام مستغانمي شاعرة ثائرة ،وهي لاتقول الشعر الا حين تحس انها مدفوعة اليه شعوريا ،ترسم فيه ابتسامة اوتسكب فيه دمعة ،اوتقذف فيه لعنة ...

ذلك هو رأى الشاعر محمد الاخضر السائحي ، وهو ما يستشفه القارئ ايضا من بين ثنايا موضوعات قصائد ديوانها (على مرفأ الايام) الذى نقتطف منه هذه القصيدة :

تحـــدى

لاني رفضت الدروب القصيرة
واعلنت رغم الجميع التحدى
واني سأمضي
لاعماق بحر بدون قرار
لعلني يوما
احطم عاجية الشهريار
احرر من قبضتيه الجوارى
لعلني يا موطني رغم قهرك
اعود بلؤلؤة من بحارى
لاني صرت اريد الحياة
لاني وقفت امام الغزاة
قراصنة البحر ثارت على
تحاصر كل سبيل الي
تمزق كل شراعي لدى
لاني جهلت عيون النفاق
واهملت عند ابتداء الطريق
سبيل التجارة باسم القيم
وكنت اناشيد اعلى القمم

يحاصرني كل يوم قـزم
لاغدو شراعا بدون هوية
لان الكواليس تغتال صوتي
واني انادى بدون صدى
لانـــي ..
ولكني رغم كل اغترابي
سابقى على مهرة من عذابي
وازرع في الضوء عمر الشباب
وعند بداية كل احتراق
تموت (الانا) ويظل الرحيق .(1)

القصيدة ،كما يقول السائحي ،مستمدة من الحياة ،وتصور لقطات حية عاشتها الشاعرة. انها رفضت السير في دروب تجار القيم ،واعلنت الحرب على نفاقهم وكبريائهم ، طالبة الحياة كامرأة لها حقوقها وعليها واجباتها نحو هذه الحقوق .

ولا اريد تفسير هذه القصيدة ،انـها لاتحتاج الى تفسير ،لبساطة لغتها وسهولـــة افكارها ،وواقعية موضوعها ،انني اريد قراءة حياة ما من خلال هذه القصيدة .

قررت الشاعرة متابعة مسيرتها اللانهائية ، متحدية" الجميع" ، الدروب القصيرة ،الغزاة، شهريار ، الموطن القاهر ،القراصنة ،النفاق ،تجار القيم ، القزم ، الكواليس،الانا ... لتصل في النهاية الى زرع (عمر الشباب في الضوء) .

هناك عزيمة تواجه مجموعة من العراقيل ، ونتج عن هذه المواجهة (تحد) ، والتحــدى عنصر حيوى — على حد رأى توينبي — انه بداية الوصول الى زرع (عمر الشباب) ، والقضاء

1 — على مرفأ الايام / احلام مستغانمي / ش.و.ن.ت الجزائر 1972 / ص 17 — 19

على (الانا) المتسخة بعفن عناصر المواجهة ،ويمكن — مبدئيا — حصر معالم التحدى في :

— محاولة تحطيم عاجية شهريار وتحرير الجوارى من قبضته حتى يتسنى لهن ممارسة حياتهن الطبيعية

— رفض عيون النفاق وسبل التجارة بالقيم والمجاهرة بهذا الرفض على اعلى القمم .

موضوع القصيدة ، تتجاذبه فكرة تحدى الواقع ، واقع الشاعرة . فما هو هذا الواقع الذى تطلب هذا النوع من التحدى ؟/

في ضوء عناصر المواجهة لمسيرة الشاعرة يبدو ان المشكلة التي تعاني منها تكمن في البحث عن الذات ،او في محاولة فرض وجودها كعنصر اساسي وايجابي في المجتمع ،ويتضح ذلك من صرختها المدوية امام شهريار الذى طالما افتك بنسا ء كثيرات حتى جاءته شهرزاد فغيرت فكرته وسوء ظنه بالمرأة ، وان كانت الشاعرة لاترضى — هنا — بما قامت به شهرزاد ،فهو في نظرها علاج مؤقت ، يسكن المرض ولا يقضي عليه نهائيا ،ولهذا فكرت في اعلان الحرب على شهريار الذى ما انفك ينظر اليها على انها مجرد جارية بين قبضتيه ، يمتلكها ، وله كامل الحق في التصرف فيها .

وشهريار الشاعرة اكبر من شهريار شهرزاد ،انه المجتمع ، او (الموطن القاهر) ،انه عادات وتقاليد المجتمع ، كما ان شهريار الشاعرة يجمع الى جانب الرجل المرأة نفسها ، فالمرأة تنظر الى نفسها على انها جارية لشهريار ،ولذلك كان رأى الشاعرة في النهاية انها لكي تتخلص من قبضة شهريار يجب عليها ان تضحي — على الاقل في بداية الامر — بشخصيتها الاولى وهي (الانا) الخارجي ،وبعد ذلك سيكون في استطاعة (الانا) الداخلي (الرحيق) ان يظل مجوجودا ويساير مسيرته في ضوء النهار بعمر الشباب .

اما الجانب الثاني من الموضوع الذى اتسمت به عملية التحدى فانه يتمثل في كشف قناع النفاق من اجل ان تحيا حياة حقيقية (صرخت اريد الحياة) الحياة التي حجبتها عنها عيون النفاق .

والنفاق هنا نفاق شهرزاد وشهريار معا ،ينافق شهريار في معاملة نفسه وفي معاملة الاخرين ، يريد ان تكون شهرزاد فاجرة ، شريطة ان يظل فجورها خاصا به وله ،أى فاجرة وشريفة في آن واحد ، ولذلك كان يمزق شراعها ويحاصر سبلها ويغتال صوتها . فهي بالنسبة له مُلك خاص..

اما نفاق شهرزاد فيتمثل في القناع الذى تختفي وراءه من اجل اخفاء حقيقة اغرائها ، انها مادة مطلوبة ، يغار عليها شهريار من اخيه شهريار ، وهي ترتاح الى هذه الغيرة ، ولكنها تريد ان تبقي — دائما — مرغوبا فيها ، ولكي تبقى عزيزة تفضل ان تظل (انشودة عالية) تجتاز الاقزام ،او لؤلؤة في بحر بلا قرار حتى لاتمسكها شبكة القراصنة ، أو عصفورة صداحة في الهواء الطلق حتى ينفلت صدى صوتها من سجن الكواليس.. انها تريد ان تكون شهرزاد الابد ، لا شهرزاد الف ليلة وليلة فحسب .

وحتى تستطيع ان تحقق هذه الامنية تحتم عليها ان ترمي قناع النفاق الذى كان سبب وأد بنات حواء عند شهريار . تقول في قصيدة (سفينتي)

ما زلت يا رفيقتي
اصارع المياه
منهوكة سفينتي
لكنها
بقوة الاله
ستقطع البحار
وتهزم المؤامرة .

ان الشاعرة قد تحققت من ان النفاق اذا ووجه باللانفاق يعطي النهاية (لقد قتل شهريار بدور والجوارى التي لحقتها بسبب عدم مواجهتهن له بنفس النفاق) ،وعلاج شهريار كان بالنسبة لشهرزاد ان تُحيِي فيه ميكروب عاجيته عن طريق اظهارها بالفجور، ولولا هذه الحيلة (النفاق) في معاملتها له لكانت النتيجة غير مرضية ، تقول في قصيدة (ما ضرنا) :

اسيرة
تخاف ان تثور
لكنني اغامر

منطق الشاعرة ان الجوارى قد قتلن لانهن لم تستعملن سلاح النفاق (قصيدة : مذكرات في مدائن السبات)

قتلت مرتين
هناك في المغارة
لاني رفضت ان اموت كل يوم
في عشرعنكبوت
وشئت ان امـوت

فما هو هذا النفاق الذى تتذرع به الشاعرة ؟

لقد رفضت الدروب القصيرة ،واعلنت التحدى والسير الى اخر مطاف من اجل اثبات ذاتها ووجودها امام شهريار من جهة ، وامام نفسها من جهة اخرى ، وكان ذلك اول مرة يوم جعلت شهريار يأكل التفاحة ويعصي امـر ربه ،وهي مغامرة من حواء ومحاولة منها علـى ابعاد القناع الذى سببه صفحة الماء الذى ارتسم فيها قناعها ، ومواجهة آدم لنفاق حواء باللانفاق سبب لهما الهبوط الى الاغتراب الذى هو اقرب الى الفناء منه الـى الوجود ، وان كانت الشاعرة هنا ، مصممة ، رغم اغترابها على مواجهـة تحديهـا لهذا الواقع :

ولكنني رغم كل اغترابي
سأبقى على مهرة من عذابي
وأزرع في ضوء عمر الشباب

كما انها تعاني من فقدان نفسها او اغترابها ، فقد حاولت الانسلاخ من ذاتها من اجل ان تلد ذاتا جديدة تستطيع معايشة الحياة ، تقول في قصيدة (الى الفارس...)

لو انني وقفت عند بابكم
القيت وجهي القديم من سمائي
ودسته لانه اصبح لا يليق
لانه من صدقه لم يبق لي صديق
وانني مثل الالوف الشاطرة
اصبح لي قناع
لكنت شاعرة .
لو انني احترف الخطابة
القيت في محفلكم اطروحة النفاق ...

ان الشاعرة مصممة على الموت في سبيل القضاء على النفاق الذى سيزول بزوالها ، ان النفاق جزء منها ،ولكن ذهابها سيخلص صغيرها منه (تقول في قصيدة : مغرور)

وثرت على الذل اهوى الحيـاة.

غامرت الشاعرة بحياتها في اعماق بحر بلا قرار من اجل الوصول الى شاطئ الوجود ،وهي عازمة على المضي قدما في هذا الاتجاه الصعب ،على الرغم من عدم تحققها من نتائـج المغامرة (لعلني .. لعلني ..) ،ولكنها ـ مع ذلك ـ مصممة على الوقوف امام الغزاة ، وعلى تجاهل النفاق . انها بكل بساطة (تريد الحياة) لمن سيخلفها ، لان سفينتهـا منهوكة ،وهي اسيرة ، تخاف ان تثور ، ومع هذا كله انها تغامـر من اجل ان يعيـش الصغير بعد موتها (قصيدة : انتحار قديسة) :

اليوم قد عزمت ان اموت
فقلبي الصغير قد ارهقه النفاق
اضيق بالنفاق في العبادة
فلتمنحوا الحياة للصغير
بعـد موتي .

لعلني بهذه المقدمة اكون قد فتحت ابواب هذه القصيدة ،ولم يبق للقارئ سوى الانطلاق في محاولة تحليلها والبحث عن ابعاد رموزها

رحلـة الـرفـض

" الشعر مغامرة واعية ، سفر مرهق بالمعاناة والمكابدة ، سفر متواصل عبر الاماكن المجهولة ، والشاعر هو ذاك الجوال المولع بالحركة ، الثائر على السكونية ، المتمرد على القوانين الجامدة ، والتعاليم الجاهزة ، الشاعر هو الذى يصنع قوانيه ويضع الاسس للتعاليم ، وزاده في ذلك التجارب الانسانية المختلفة واحساسه المرهف والثابت ..(1) .

لاشك في ان الشعر رحلة مجهولة ،يدرك الشاعر منطلق رحلته ولكنه يجهل الرحلة وهو - في اغلب الاحيان - يعود الى شعره ،كأى قارئ ، لعله يتعرف على معالم رحلته .

وشاعرنا الشاب (حمرى بحرى) قد قطع مسافة طويلة في عالم رحلته ، توقف خلالها ليفصح لنا عما احس به من معاناة ومشقة في سبيل البحث عن الاماكن المجهولة ، يقول في قصيدة (الشمس ،الارض ، الرفض) (2)

الشمس في كل مكان

عاشقـة ..

تبحث عن انسان

يجتاز رافضا .

حدود الذات والمكان

كالهواء .

الشمس في مكان

والارض عشق ووفاء

امـرأة ..

تعشق حبات القمر

سنبلـة ..

زهـرنمـا ..

---

1 - مقتطف من مقدمة ديوان (ما ذنب المسمار يا خشبة) ش.و.ن.ت الجزائر 1981

2 - الديوان / صص89 - 90

يحلم بالشفق

والرفض في كل زمان

انشودة

يكتبها انسان

خارج قوقعة المكان .

الشمس ، الارض ، الرفض ، ثلاثة عناصر تتداخل في تكوين رحلة الشاعر :

- الشمس تجتاز حدود المكان
- الارض تحلم بالشفق
- الرفض حلم انسان خارج المكان

وجود الانسان في الشمس كزمان والارض كمكان ، فكرة ألحّت على الشاعر منذ بداية رحلته ان الشمس كاشارة الى رحلته الزمانية والارض كاشارة الى رحلته المكانية ، يمثلان المسافة الزمكانية في حياة كل انسان ، وهي رحلة مفروضة ، وما الانسان (الرافض) لهذه الرحلة ، سوى انشودة مفقودة ، فالانسان الذى يحاول رفض هذه الرحلة غير موجود ولا يمكنه ان يوجد في هذا الوجود .

الشمس عامة ، تبعث أشعتها في كل (مكان) معلنة بداية (الزمان) ، والزمان - كما يقال لا يرحم - .

والارض تعشق وتفي ، ولكن وفاءها كوفاء المرأة وعشقها يحتاج الى عناء ، كما تحتاج السنبلة الى حبات العرق ، والزهرة الى ما يساعدها على بلوغ الشفق .

فما مصير رحلة الانسان الذى يرفض الشمس والارض ؟

ان رحلته تقع خارج قوقعة المكان ، يقول في قصيدة (ما ذنب المسمار يا خشبة) :

.. وانا وحدى ثمل

من يأتي يؤنسني

هذا زمن الغربة

ينمو في خطواتي

يعشوشب في ذاتي

انه خارج الوجود المكاني ، وحده بلا أنيس ، وهو خارج الوجود الزماني ، غريب في زمانه (يركض في مفاصل الشمس (1) محاولا ان (يغزل خيط الشمس برنوسا) (2) .

يتحرك الشاعر مع الزمن ، ويريد مسابقته واستغلاله لصالحه :

يد تبني ، وتبني ..

تنحت التاريخ ثلما من ضلوعي

في ضلوع الارض قمحا

فليمت همي وجوعي (3)

وقد تأبط حلم الارض وحمل زاده حب الانسان (4) . انه كسيزيف الذى لم يصارعه الزمان والمكان :

.. سيزيف في كل مكان

سيزيف في كل زمان

يبحث عن انسان

يحلم بالريح التي تهز اوراق المطر (5) .

ثبت لدينا الآن ان رحلة الشاعر لم تكن في اللازمكان ، انها بين ضلوع الارض ومفاصل الشمس ، ولما كانت الشمس - في منطق الشاعر - تبحث عن انسان رافض لحدود الذات والمكان ، والارض امرأة تعشق حبات العرق ، فان الشاعر لا يستطيع ان يظل محلقا

---

1 - الديوان / قصيدة / امنحكم وعدا
2 - الديوان / قصيدة / السنبلة الحامل
3 - الديوان / قصيدة / اغنية الزمن الاتي
4 - الديوان / قصيدة / عرس فيل
5 - الديوان / قصيدة / سيزيف لم يمت

في اللازمكان ، ومن ثم وجد نفسه متراجعا خجولا :

نحن المسافة الخجولة
والرفض كان وردة في ريح (1)

فالرفض مجرد انشودة يكتبها انسان خارج الزمكان ، ولذلك اصبح الرفض عند الشاعر مجرد (جذع يسكن نبض الارض) (2) او (وشم على عاتق المرأة الولود) (3) ، تلك المرأة او الارض التي هي (أم الجميع) .

احبك ايها الارض
يبوحي اليك
حنيني اليك
تبرعم كالرفض
.. لانك ام الجميع
احبك حقلا وضيعة
وشمسا على عاتق الرفض
تناضل
تناضل نبض السنابل (4)

ان الشمس تقدم له اشعتها وضوءها ، والارض تمنحه زادها رغم مجابلة رفضه معايشتها فهل من عبرة يعتبرها الانسان ؟

اخذ الشاعر عبرة ، لخصها في قوله : (الشمس هواء جار ، والارض ولود ، والرفض صيحة قد تثمر اذا وجدت بين الشمس والارض) ، وكانت هذه العبرة قصيدته (العشق

1 ـ الديوان / قصيدة / رباعيات الماضي والاتي
2 ـ = / = / يا احجار الماس
3 ـ = / = / المرأة النهر
4 ـ = / = / الحب بقلب جديد

والتحدى) :

اعرف زيدا يحفر الاعماق حبا وحنان
يعانق الاثلام ، شوقا والشجر
يعشق رائحة العرق
اعرف انسانا جديد
اعرف وجها من مطر
يهرب منه الجوع
يقتل القدر
يعانق الاثلام شوقا والشجر
الجوع مات
الجوع مات
مات القدر
هل تعرفون من أنا ؟

انه التحدى .. انه الانسان الذى رفض ان يبقى متقوقعا خارج الوجود ، انه انسان جديد ، ابن الشمس ، ابن زمانه ، انه ضالة الشمس ، وحبيب الارض ، عاهدها على معانقة اشلائها ، وعشق رائحة مخاضها . انه ابن الرفض ، رفض الجوع والقدر اللذين طالما حجبا عنه ضوء الشمس ورائحة الارض .

القصيدتان متكاملتان ، تصور الاولى بداية الرحلة وتقدم الثانية نهايتها ، وعلى المتلقي ان يحاول قراءتهما معا حتى يمكنه ان يسبر ابعادهما .

الرفض في زمن الصمت

من خلال قراءتي السابقة لمجموعة من الاعمال القصصية ، لفت انتباهي طغيان ظاهرة الصمت على مجموعة كبيرة منها . وقد اتضح لي ايضا ان الشعر الجزائرى المعاصر لم يخل من هذه الظاهرة ، اذ طغت على معظم الدواوين التي نشرت خلال العقدين الاخيرين .

ولعل ديوان (فصول الحب والتحول) ، لمحمد زتيلي يؤكد هذه الظاهرة التي اصبحت ـ كما سبقت الاشارة ـ سمة اساسية من سمات الادب الجزائرى المعاصر .

ويبدو ان افضل مثل على ما ندعي قصيدة (مقاطع من اغنية الرفض في زمن الصمت) ، التي يتصارع فيها الرفض مع الصمت .

ومعالم هذه القصيدة تتلخص في ثورة الشاعر على الوضع العربي الراهن ، حيث لاحظ ان ظاهرة الصمت قد خيمت على جموع كثيرة من قطان الوطن العربي الكبير ، وان هذه الجموع لا تزال تغط في سباتها العميق ، ذلك بالرغم من المواقب الوخيمة التي ستعقب ـ حتما ـ هذا الصمت .

وقد تصدى الشاعر لهذه الظاهرة بالرفض ، وصرخ ـ ملء فيه ـ وعلى مسمع كافة الناس بان مآل الصمت النهاية المحتومة ، وان الهروب من مناكب هذه النهاية لا يكون الا بالرفض القاطع لكل الابواق الخرساء التي تحاول كبح جماح الاصوات الصارخة .

غير ان مرض الصمت قد استفحل في الساحة العربية ، وصار الصامتون لا يكتفون بالايماء (أى نعم) الى كل شيء ، وانما اخرجوا اشارة الرفض (لا) من قاموس صمتهم ، وامتنعوا عن كل تكذيب للاخبار ، ولكثرة ما صدقوا الكذب ، صار الخطأ في نظرهم صوابا ، واصبح الكذب عندهم صدقا ، والكلام صمتا والصمت كلاما .

جاء في مطلع هذه القصيدة :

مالي ؟ ومالك ؟ والصمت ثالثنا
ثم لا شيء بعده ؟
كيوم ولدت
وجدتك تبكي ، وتصرخ ، ترفض ،
لكن صوتك ما زالت الريح تحمله (67)

وجاء في مخرج هذه القصيدة :

... لهذا ستبقى حروفي ،

وكل القصائد في دفترى حاملة ،

لكي تلد الرفض في زمن الصمت (72) .

ان ميلاد الرفض في عهد طغى عليه الصمت هو ــ بلاشك ــ معجزة العصر ، والا فكيف يفسر ظهور الرفض بعدما كان الصمت لازمة الناس وكلامهم المفضل ، حتى خيّل للشاعر ان الصمت هو الناس انفسهم ، بل ان الصمت والناس توأمان (72) لايختلفان ابدا .

ثار الشاعر على هؤلاء الناس فخاصموه واعلنوا عليه حربا شرسة بمكبرات اصواتهم المخنوقة والشعارات الجوفاء واللافتات البكماء ، وكانت النتيجة ان وجد نفسه وحيدا غريبا (70 ــ 72) يهذبه الانتماء لقائمة الضعفاء (12) الذين اكتفوا باسناد ظهورهم الى اشجار ساحات الشهداء (49) .

لقد اصيب الناس في زمن الصمت بوباء الصمت ، حتى خيل لهم انهم صاروا لايحتاجون ــ لعلاج مرضهم ــ سوى الى الصمت (14) . فلماذا الصمت ؟ وماذا قد يقع لو اختاروا غير الصمت ؟ (18) ، فقد شاخ الزمان ، وشاخ معه الامل (46) ، وسقطت كل النداءات ، ومضت كل الاماني (40) ، وجاءت البداية ، وحان الميلاد الثاني (42) .

فالشيء اذا زاد على حده انقلب الى ضده ..

آه .. لو لم أصلب في صمتي ؟ (57)

سئم الشاعر من مداواة الصمت بالصمت ، واعلن الحرب على الصمت ، وكانت النتيجة ان اصبح وحيدا ، مصلوبا بحبال الصمت .

.. آه يا هول الصمت .. (58)

لم يبق امام الشاعر سوى السفر بعيدا ، ولو كان ذلك دون جواز سفر ودون انتظار ، ودون أمل في العودة (68 ــ 69) . صار همه الوحيد ان يقوم بسفر ينتهي في زواياه صمته (11) ، ومن ثم يصبح بعيدا عن اهله الذى سئمت ــ حتى مدنه ــ صمته (80) ،

وهناك يتسنى له ان يرفع صوته عاليا مرددا نشيد الصمت (83) ، دون ان يخالجه الخوف من الموت في خط القتال (28) ولا ان يقلقه الصراخ في عالم الصمت (54) .

لقد اعتاد الناس ان يواجهوا الرفض بالصمت ، ويكتفوا بالقول ــ خوفا ــ انا على خطأ وانكم على صواب ، والقوى ــ فيما يقول المثل ــ دائما على صواب :

وقولك دوما .. خطأ

وقولي دوما خطأ

ولكن قول الامير صحيح ، صحيح

ولو كان جد خطا .. (69) .

فهل حاول هؤلاء ان يصرخوا مع الشاعر كي يسابقوا هذا الزمان ؟ وكي لا يفوتهم قطار الوجود ؟ وحتى لا يدفنون احياء (71) في قبور الصمت ؟ .

لم يعد الشاعر يتوقع شيئا ، واصبح مؤمنا بالبداية ، وان كانت ليست جميع البدايات مرضية غير ان ما يبشّر بالخير ان زمان الصمت بدأ يولي ادباره ، خاصة وان حفلات الرفض والطرب العربي في (الكروان) (79) أوشكت ان تخرج من الموقف المتردي (73) . فقد شرعت في ازالة قولة الجبن : (محال) ، وبدأت تقذف صرخة الثأر الجريئة للقتال (29) ، ولطالما أهين الليث ، وصار الهر ليثا ، ولكن راية العرب ستظل مرفوعة ما دامت نخوة صلاح الدين تدفعهم الى سعير القتال (30 ، 37) . وبالفعل فقد صاحت العرب مغنية :

نحن عرب ... لم يبع التاريخ عنا

غير عدل .. او اخوة

او صمود في القتال .. (30)

غير ان هذه الاغنية لن يتعدى صداها ارجاء الدار العربية اذا اكتفى الناس بترديدها في صدورهم ، وان محاولة تغيير المنكر بالتنهدات المخنوقة في زمن الصمت صار باطلا وما كسّره صراخ البنادق لا يصلحه تنديد الصمت . (يا ايها الليل قف ، وبدون مفاوضتي ، فانا احمل قنبلة لتنالك ، قف فانا الان اعرف وجهك ، قف .. من جميع الجوانب انت محاصر (10)

المكبـل الطليـق

" الشعر مغامرة صعبة .. والحديث عن الشعر مغامرة اصعب " تلك هي المقولة التي افتتح بها الشاعر العندليب سليمان جوادى قراءته لمجموعة شعرية غنائية – اوعلى الاصح – مواويلية : (مواويل للعشق والاحزان) (1) ،وهي لشاعر عندليبي آخر هو بوزيد حرزالله .

والحق ان هذه المقولة لا تنطبق على سليمان جوادى وحده ، بل هي تصح مع القراء والشعراء ، لان الشعر لغة خاصة يستعملها الشاعر في الدخول الى عالم الحياة العادية فيحولها الى حياة خاصة ،تختلف في ظاهرها – بل وفي جوهرها – عن الحياة الاولى ،على ان لا يعني هذا ان المقصود بالحياة الخاصة ،الابتعاد عن الواقع ، بل العكس هو الصحيح ، اذ ان الشعر لايهرب من الواقع بقدرما هو يحاول الولوج داخله فيشذبه ويلطفه ، مما يجعله يخلق في النهاية واقعا جديدا ، انه واقع الواقع،او حينئذ الحياة .

واستسمح بادئ ذى بدء الشاعر الثائر ،ان أهمس في أذنيه قائلا : انني تذكرت – بعدما انتهيت من القراءة الاولى لهذا الديوان – معركة (دون كيشوطة) مع تلك الطاحونة الحمقاء . فهل هناك وجه للشبه بين هذا وذاك ؟ ذلك ما قد يعرفه القارئ لو أعاد قراءة هذا الديوان .

وقد اخترت ان تكون قصيدة (الولوج من ثغرة محرمة) الباب الاول الذى ألج منه الى عالم هذا الديوان ،وقد يسألني القارئ ،لماذا وقع اختيارى على هذه القصيدة بالذات ؟ فأقول له – بكل بساطة ،وعلى لسان سليمان جوادى دائما – (فانا لما اعجب بقصيدةمعينة لا استطيع ان افسر لاى كان سبب اعجابي) (5) ، وان كان اول اعجابي بهذه القصيدة يكمن في سماعي لها لاول مرة من خلال رحلة سعيدة جمعتني بالشاعر .

ومما لا شك فيه ان كل من يقرأ هذه القصيدة يلفحه حفيف سخط المظلومين ، وتلسعه تأوهات المكبوتين ، كما تحز في نفسه معاناة المعوزين ، وهي انطباعات تفرضها كلمات هذه المواويل .

---

1 – المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر / 1985

ولقد جزأ الشاعر هذه القصيدة الرائعة الى مجموعة من المقاطع ، وكأني به أمسى من هذه التجزئة ،خلق جو نفسي خاص بالمتلقي ، وذلك حتى يستطيع هذا الاخير ان يجمع قوة عتيدة وعنيدة يرد بها ضغط هذا السخط والمعاناة .

كما قد اختار لكل مقطع عنوانا ايحائيا ،فغالبا ما لخص هذا العنوان الفكرة الاساسية للمقطع . ولكننا — مع ذلك — ينبغي ان لا نقتنع اقتناعا ساذجا بهذه العناوين . فهي — في بعض الاحيان — فخ يقع فيه الشاعر نتيجة انسجامه مع انسياب عواطفه ، وكثيرا ما يقع المتلقي في شرك مثل هذا الفخ ، ويظل يدور في فلكه ، وقد صدق الذى قال : شق في القصة ولا تشق في القاص .

وقد حرصت على اعطاء لمحة قصيرة للقارئ عن مضمون هذه القصيدة ، وان كنت ارفض — من حيث المبدأ — أى تلخيص لأى عمل ادبي ،فالادب لا يلخص وانما يقسر ويفهم .

يصور المقطع الاول وعنوانه (خيبة) صراع الشاعر مع الظروف التي تحيط به ، وهذه الظروف القاسية اقوى فيما يبدو بكثير من قدوة وارادة الشاعر ، ومن ثم فهو متيقن في قرارة نفسه بانه (سيخسر الرهان) (86) ، وكل رهان في قبضة الزمان (90) تكون عواقبه حمقاء كحماقة دون كشوطة .

اما في المقطع الثاني وعنوانه (صورة التقطت الان) فنلاحظ ان طقس الصراع قد خيم عليه جو الصمت ، وكأني بالشاعر قد عجّل نهاية الرهان ، فقدم النهاية على البداية ، فكانت النهاية المحتومة هي اسدال الستار على حارة مهمولة ، مطفأة الانوار (87) ..

ثم يعود في المقطع الثالث الى البداية (عودة للبداية) ،ويستأنف الصراع بكل ضراوة مما جعل الشاعر يتخوف فينتابه لون من الحزن وتكاد الهموم تغتاله فيرمي نفسه في احضان البحر مستعجلا نهايته التي يعرفها مسبقا (88) .

وفي المقطع الرابع (استراحة) يزداد تأكد الشاعر من الفشل امام مصارعة رحى الدهر، وتكثر تأوهاته المتلاحقة ، ويعلن صراحة عن ضعفه واستسلامه في (قبضة الزمن) (90)

ويتأكد هذا الفشل في المقطع السادس (بعد الاستراحة) حيث يركن فيه الشاعر الى الدعاء، ويكتفي بطلب يد المساعدة من اللـه سبحانه السميع البصير (92) .

وبعدما كاد ينهزم ، بدأت ملامح الانتصار تخيم من جديد في المقطع الخامس (نهاية البداية) حيث تحركت في داخله زوبعة الرفض والتمرد على القيود . انها بادرة خير .

ثم تحقق هذا التمرد في نهاية القصيدة ، اذ تجلى بوضوح للجبروت الطاغي ان هذا الشاعر قد اكتشف معالم الطريق الذى سيؤدى به الى الانتصار المحقق . وما كان على التجبروت في النهاية الا ان اخفى القضية المزعومة ، وقرر على مضض براءة الشاعر (93) .

ذلك هو ملخص عام لما يمكن استخلاصه من هذه القصيدة ،ولكنني لا أريد الوقوف عند هذا الملخص — بل عند هذا التزوير الفني — ان ما هو خلف هذا الملخص أكثر بكثير مما طفا على سطح القصيدة ، وإلاّ فكيف نفسر او نحلل ظاهرة هذا الصراع اللاامتكافئ بين الشاعر البرئ والظروف العاتية التي ألمّت به ؟

انها — فيما يقول الشاعر — مشكلة معقدة (63) . ولعل ما يشرح لنا هذه المفارقة ،هو الرجوع الى البحث عن اسباب هذا الصراع .

فلقد أصر على (الولوج من ثغرة محرمة) متجاهلا (أوامر السلطان) (89) ، كافرًا بالصبر (58) ، معتمدا في كل ذلك على سفينته الوحيدة التي غرس فيها — من طينته الرافضة ،المعاندة — (64) روح المغامرة (59) .. يا لـه من .. إنه خلق من غضب (64)

يقول :

أنـا يا بلادى يد من حديد
برغم الجراح انا لن احيد (51)

ان عنصر التحدى يطغى على الجو النفسي لدلالات هذه القصيدة ، خاصة ،وقصائد وقصائد الديوان عامة ،وتمثل هذا التحدى على الخصوص في المغامرة الصعبة التي عزم عليها

الشاعر ، انها منازلة غير متكافئة ، فهي بين ضعيف وقوى ، او بين محكم وحاكم ، وبالرغم من ان الشاعر يدرك تمام الادراك مدى غطرسة الخصم وجشاعته ـ مما جعله يقتنع مسبقا بامكانية انهزامه في الجولات الاولى ـ فانه كان متيقنا بان مهمته ان يكون شهيد عبرة فيصبح في نهاية المطاف اغنية ترددها الاجيال اللاحقة (93) .

فاذا كان الشهيد الاول ـ شهيد نوفمبر ـ قد واجه العدو الغاصب بصدره فمات شهيدا وعاش بطلا في وجدان الشاعر (انظر قصيدة / نوفمبر / 73) ، فان الشاعر يواجه بدوره (غرفة التحقيق مبتسما) (93) ، متفائلا بانتصار قضيته التي نقشها على ساعده .

فما هي هذه القضية التي قدم الشاعر نفسه قربانا لها ؟

انها ـ كما يصفها ـ قضية شريفة ، عظيمة ، شعارها خدمة الانسان (88 ـ 89) ..

انها قضية الانسان في هذا الزمان .

الانسان في الزمان قضية ازلية ، وهي في الوقت نفسه حركة بهلوانية قام بها الانسان أمام قوى عتية ، ولكنها اصبحت حقيقة واقعية بعدما شمّر الشهيد الاول عن ساعديه (وملأ الآكام نارا ورصاصا ورعودا) (72) .

وبذلك دخل الشهيد في دائرة التاريخ ، وسجل للورى لحن الخلود (72) ، وهاهو التاريخ يعيد نفسه ، حيث نجد شاعرنا يفوز ايضا ، فتلحن له (اغنية المكبل الطليق) (59) وهو بالفعل ما حققه الشاعر حين قرر الولوج من الثغرة المحرمة ليزيح اللثام عن حقيقة القضية ، قضية الشاعر الشهيد ، شهيد الزمن الغادر ، زمن الزيف (88) ـ ، الزمن الذى انقلبت فيه الموازين ، فاصبح كل من يرتدى ثوب الشرف (مجرما او خائنا او مذنبا او منحرفا) (14) .

انها مفارقة (قاء ها تاريخ النفاق) (15) فرفضها الشاعر وصمم على الابحار باحثا عن علاج لها ، غير مبال بالسجن او الموت (15) ، ما دام السجن والموت أشرف من الذل في زمن صار العار فيه موضة) (19) .

أفيقي فما كنت يوما جبانا

لأرضى .. بعار .. بذل القيود (52)

نادى الشاعر سفينة نوح (25) لعلها تنقذه وحبيبته القضية من الطوفان (86) كما انقذت من قبل نوحا وقومه الصالحين .

سأهدى قصيدى

حطام سفينة

نوح ينادى

من شاء ينجو

والآ ..

وراءك سيل (28)

انه تحذير صريح الى كل من يرفض (السير في موكب الرفض) (33) او يحاول الامتناع عن (الانتماء الى عالم الرفض) (51) ، كما ليست هي مجرد (تراتيل مغترب) (41) ، يرددها الانسان البعيد عن اهله في شكل (اغنية للوطن) (57) .. انه واقع القضية ، قضية مغترب في وطنه ، عزم على التحدى ، وركب حصان التصدى ، متأبطا سيف (علي وخالد) ، راغبا في العودة ، عازما على الوصول قبل الوصول (48 ، 58) .

يا لها من لهفة جياشة .. قد انتابت هذا الانسان يوم ادرك مصير (العروش الخشبية) (38) ، فهل هذا ، لانه يمقت ركاب رأس السلطة (34) ام لانه رأى الاعداء من حوله يكفرون بدين الحب والشرف (30) ، وينكرون نبيهم الامين (91) ، ويؤمنون ـ في المقابل ـ رغم هزائمهم (بزمن الدولار) (36 ـ 37) .

وحسرتي عن امة ... (91)

كفانا .. ايا امة النفط .. (54)

تلك هي صيحة الشاعر الكبرى التي دوّى لها الافق فالتقى صداها بصرخة الابطال تنادى من اعالي الجبال وتردد :

كل شبر في بلادى ... قد زرعناه سنابل

ثورة المليون ... انا .. قد حملناها مشاعل

فاذكريها يا فرنسا واقرئي درس البواسل (73) .

واذا كانت فرنسا قد اتخذت من ثورة المليون درسا قاسيا فان مخلفاتها قد تحولت الى جراثيم سامة لا زالت تحاول امتصاص رحيق السنابل اليانعة التي غرسها عهد ما بعد الثورة ولكننا متفائلون ، لأن هذه السنابل قد اقسمت ان تسلك درب المليون شهيد (83) ، وان تكون رمز الفداء (84) .

... فيا ام اني سمعت مناد
ينوء بحمل ثقيل
يدعو لحرب ، يؤكد
بانه يوما سيقتل كل دخيل .(27)

وهكذا فان المكبل الطليق قد انتصر في سجنه وخرج من شرنقته ، وكانت شرارة غضبه اشبه بسيف دون كيشوطه الذى حقق فرضية ديوجين كلبي ..

ســوق النفــاق

كتب الدكتور محمد ناصر افتتاحية لديوان (اسرار الغربة) (1) ، لفت انتباهي فيها قوله " ... ان الغماري ... صاحب رسالة عالمية ... تشعر وانت تقرأ شعره بانه انسان لا ينتمي الى ارض معينة ... فهو ثائر ساخط متمرد رافض ابدا ، متطلع دوما الى غد افضل " (2) .

اجل ، إن دواوين الشاعر كلها تزخر بالاشارت الاسلامية الى زعماء الاسلام وعلمائه كما انها تعج بالمواقف الدفاعية ضد كل من حاول ان يمس قداسة الاسلام بسوء

– يقولون : ما الرحمن ؟ وما الهدى ؟ .. كلام قديم .. ليس يجدي مهزا
– يقولون دعنا من قديم يكرر فما الدين الا للشعوب مخدر
– يقولون دعنا ... ذاك غزو مشرد وانت بأفيون الخيالات .. تسعد
– كذبتم .. فما الاسلام الا عقيدة تجلى بها قومي فسادوا .. وشيدوا (3)

تلك نظرة خاطفة تحتم وجودها في مطلع قراءتي لهذه القصيدة (4) التي توحي بموقف اساسي للشاعر يتلخص في ان الغماري شاعر قضية ، وان قضيته هي : الذود عن حرمة الاسلام وحماية انصاره – اولا – ومن اعدائه – ثانيا – .

الى شاعر القصر

يا شاعر القصر هان الشعر والادب ما ضيك لمح وراء الغيم يحتجب
فيم المديح على الاعتاب تفرشه للفاتحين ! ولا خيل ولا قضب
فيم القصائد .. ترويها ملفقة نشوى .. تسكع في اعماقها الكذب
يا شاعر القصر .. كم اغراك درهمه فرحت في الموجة الزرقاء تصطخب

1 – اسرار الغربة / مصطفى الغماري / ش.و.ن.ت. / ط2 / الجزائر 1982
2 – انظر المقدمة / 14
3 – قصيدة / ثورة الايمان / 31 – 35
4 – قصيدة / الى شاعر القصر / ديوان / اغنيات الورد والنار / لمصطفى الغماري / ش.و.ن.و. / ط1 / الجزائر 1980 / ص 97 – 101

وترسم الوهم اقدارا مقدرة ويرفض الله والصحراء والعرب
الحرف يكفر بالاوثان . ياشفة تقيأتها الريح السود والحقب
الحرف يرفض أن تجلى عرائسه للحائمين على " الوادي " وما شربوا
تاريخهم في المدى الرملي مهزلة خضراء ! لليل كم غالوا وكم صلبوا
الرمل .. يا شاعر التيجان . هل علمت جواهر التاج ما حداه ؟ اذ يثب
ما ضيه في الروع افراس مطهمة سمراء من غدها تستأصل الريب
جرح الكرامة في " سبتا " مولولة أعماقه ، والشطوط الخضر تنتحب
والليل تلهث في الوادي معربدة عيناه يغريه في ابعاده الذهب ،
يا شاعر القصر .. ما غنت مزامره الا لمن ادمنوا في الغزو واغتصبوا ،
شاخوا على اللعنة الكبرى ، وما علموا ان الدروب اذا ثرنا ، دم سرب ،
الثورة البكر من اذكى براعمها ؟ حتى تمازج فيها الورد واللهب .
تخمر الحقد يا سمراء .. فالتهبي على عرش الدجى ، وليسقط اللقب ،
ذكي براكينه الحمراء ، وانسكبي .. كالضوء ملء . الدروب السمر ينسكب ،
مدي يدا بمرايا الغدر عاصفة بألف ثأر على الاصنام يلتهب ،
واستمطري في المدى شلال ملحمة حبلى بألف غد يمتد .. يقترب
هواك تعشقه اقدار امتنا للحب ما تمطر الاقدار .. ما تهب
اشواقنا من كروم الفجر مترعة وعزنا كلمات الله ، لا النسب .

لقد ترددت – في هذه القصيدة – مجموعة من العبارات ذات رموز متداخلة ، تكاد تلتقي حول بعد عام واحد هو (النفاق) – بحيث يمكن القول ان مرض النفاق الذي أصاب جبهة الصديق كان محورا اساسيا في دواوين الشاعر وقطبها الرئيسي .

وظاهرة النفاق مرض قديم ، أصيبت به جل المجتمعات في مسيرتها العقيدية ، لعل من ابرز ما يؤكد انتشار هذه الظاهرة في تاريخ الفكر الديني موقف الاسلام من المنافقين وتشدده عليهم ، الى درجة ان عدد الايات التي نزلت تحذر من عواقب سوء النفاق تزيد بكثير عن عدد الايات التي جاءت تشدد على الكافرين وتعدهم بعذاب السعير

كما ان عاهة النفاق تصيب ـ عادة ـ مواقف شواذ ناظمي الشعر في ظروف ومناسبات معينة ، ومن ثم كان شعر هذه الزمرة من الشعراء الشواذ خارجا عن دائرة نظرية الصدق الشعرى بنوعيه الخلقي والفني (1) .

كان المديح على الاعتاب ولا يزال مفروشا بالكذب والتلفيق ، ومهما حاول بعض الشعراء ان يتدرعوا بقاعدة (اعذب الشعر اكذبه) فان مصطفى الغمارى لم يبال بهم ، وانطلق من قاعدة خاصة هي ان الشعر اساسه المنطق الفني ، والمنطق الفني يرفض الكذب ، أيا كان نوعه .

وهكذا فكما هلك الشعر قديما في سوق التكسب البلاطي أهين اليوم في سوق النفاق السياسي ، وعلى الرغم من أن شعراء البلاط يعرفون ان هذا النفاق هو مجرد (لمح وراء الغمام) وانه اشبه بتدرعات المتسول الوقح امام عتبة المحسن ، فانهم ـ مع ذلك ـ حاولوا ان يجعلوا من النفاق حقيقة ، ومن الشك يقينا ، ومن الكذب صدقا ... فحق عليهم ان يتبعهم الغاوون .

يبدو من القراءة الاولى لهذه القصيدة ان شاعر القصر لم يكن كأى شاعر آخر من شعراء البلاط ، همّه الاول غنم الغنائم ، وانما هو شاعر (داهية) يعرف الحقيقة ، ولكنه يكتفي باظهار الوجه الآخر منها . وهذا ما قد يتأكد لنا لو أعدنا قراءة هذه القصيدة قراءة تمعّن وتبصر : لهذه القصيدة ابعاد اخرى ، تتعدى حدود الدلالة اللغوية لمواقف الشاعر من مستلزمات صاحب القصر .

لقد عوّدنا النقد الادبي على ان شعراء البلاط يتوسلون بالمديح للحصول على مبتغاهم ويلوذون ـ احيانا ـ بالنفاق من اجل التكسب ، فهم تجار ألفاظ ، يرتزقون من وراء الاحتراف بالنظم ... فهل كان شاعر القصر مرتزقا ؟ واذا صحّ انه مرتزق ، فمن هو الرازق ؟

بالطبع ، ليس هو الرازق الرزاق ، الذى اختصه مصطفى الغمارى بأحقية الشعر :

---

1 ـ اسرار الغربة / المقدمة / 8

ما كنت يا رباه اهوى زهرة | لولاك .. ما طابت لي الصهباء
الموت الا في هواك جهنمية | والشعر الا في هواك هراء (1)

ان شاعر القصر هو على خلاف مصطفى الغمارى لا يقول الشعر الا في سبيل الاغتصاب والظلم ، محاولا بذلك قلب الحقائق :

يا شاعر القصر ما غنت مزامره | الا لمن ادمنوا في الغزو واغتصبوا

تهون امام شاعر القصر قدسية (الحرف) وتضؤل بين يديه كرامة الانسان وشرفه . انه شاعر حقير يتطاول الى اغتصاب حق غيره الضعيف ويتنازل طواعية عن حقه لسيده

يا راكزين على الدما | ء وجودهم .. تمس الوجود
يا شاربين من البراء | ة ..من دمي .. قطع الوريد
من بيعكم شرفي تلذ | لكم ... وتخضر البرود (2)

عجبا لهذه المفارقة ! يتجاهل الشاعر (جرح الكرامة في سبتنا) التي لا تزال تنتحب في صمت منذ غادرها طارق ، ويتوق متطاولا بعنقه الى (العيون) يريد ان يرخى سدوله عليها :

ـ يداه على " العيون " دم ، وخلف مسافة العشق
يشل النار .. يصلبها ، يبيع " العمق " بالعمق
ـ فسبتا " اليوم اغنية تلملم مرّ شكواها
وتعلك صبرها .. يمتد وجه الليل .. ينماها (3)

باع شاعر القصر كرامته في "سبتا" واخذ " العيون " رهينة البيع ، وهذا بالرغم من رفض هذه الاخيرة ان تكون جارية ، ولكن ما العمل يا " عيون " اذا كان سم النفاق قد استشرى في مفاصل الصحراء ، وتعذر اتلافه ؟

---

1 ـ اغنيات الورد والنار / قصيدة / الى الغريك / 122
2 ـ اسرار الغربة / قصيدة / اسرار الغربة / 163
3 ـ اغنيات الورد والنار / قصيدة / نجوى العشق والنار / 156 ـ 157

نعم ، ففي الغد ستستأصل كل الشكوك ، وسيعرف شاعر القصر ان الثورة البكر تقضي ــ عاجلا او آجلا ــ على عروش الدجى ، وستسقط ــ حتما ــ اصنامها اللقب ، ويتلاشى النسب ، ويزهق الباطل ، وتسطع شمس الحقيقة .

ان تاريخ شاعر القصر مهزلة حبلى ، بدأ يقترب فجر وضعها ، وسيقوم الوليد ــ لا محالة ــ بتكسير اصنام ابيه ، ويعلن الايمان بدين جديد قديم ....

لا شك في ان مصطفى الغماري متشبع بالروح الاسلاميه ، ولا شك في ان كل دواوينه معجونة في خليط وضع الامة الاسلامية ... كل ذلك جعله يتصدى لشاعر القصر محاولا بذلك محاربة ضعف المسلمين بقوة الاسلام و غرس كرامة القرآن في بقاع ذلهم ، ومحو عارهم بمجد تاريخ اسلافهم ...

فهل فكر يوما شعراء البلاط في ان النفاق حماقة عاصفة ، يوم تهب تجعلهم وبلاطهم اعجاز نخل خاوية ؟

وبضحكة صفراء يــــز   جيها لكنم شره مريد
تتنافخون .. وتحسبو   ن الارض في يدكم تميد
سخرت مرايا العصــر   منكم .. لو علمتم يا قرود .. (1)

لعل هذا ما اراد مصطفي الغماري ان يهمس به في اذن شاعر القصر ، ولكن السؤال الذي يبقى مطروحا هو : ألا يكون شاعر القصر هنا وصاحب القصر هناك مجرد وجهين لعملة واحدة ؟

ذلك ما تعج به ابعاد هذه القصيدة ، وهو ما اترك للقارئ مهمة البحث عنه داخل قصائد دواوين الشاعر .

---

1 ــ اسرار الغربة / قصيدة / اسرار الغربة / 164

غـربــة

يرى غالي شكرى ان الشاعر عبد العالي رزاقي يرتبط في مجموعته الشعرية (أطفال بورسعيد يهاجرون الى اول ماى) (1) بأرضه اعمق الارتباط ، وبقواها الحية اعمق الاتصال ، وبأمته العربية اعمق الالتحام ...) (2) .

وهو ما يتجلى للقارئ لو تصفح دواوين الشاعر ، ففيها سيجد روحا رافضة للوضع الراهن ، متمردة على الواقع العربي الاسلامي المتردى . ولعل همومه التي سجلها في ديوانه (هموم مواطن يدعى عبد العال) (3) تلخص كل ما اراد غالي شكرى اثباته .

فهل تكفي الاشارة ـ مثلا ـ الى ان الشاعر لم يعد يرى :

... غير سليمان في مصر يصلب

والرأس تحمل في طبق ...

عربي (4)

وانه لم يعد يعرف عن أمة عربية كانت عظيمة ، غير عنوانها القديم (بقيت آثاره في الصفحة الاولى ، مرسومة بخط عربي ، وان (هذه الارض ومن فيها) اصبحت (تحمل في اعماقها اكبر هم عربي) ، وان هذا الهم (لا يطلب غير الانتماء العربي) (5)

لقد اصبحت همومه الان (اكبر من ان تكتب) (6) و (اكبر من ان تنشد) (7) ، بل (اكبر من ان يفاتح بها) (8) لان الهموم كالذنوب لا يكفر عنها ـ في هذا العصر ـ الا بالذنوب (9)

---

1 ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع / الجزائر 1983
2 ـ مقدمة الديوان / 10
3 ـ مجلة / آمال / عام 1984
4 ـ اطفال بورسعيد .. / قصيدة / اطفال بورسعيد يهاجرون الى اول ماى / 47 ـ 48
5 ـ اطفال بورسعيد .. / قصيدة / هوامش لايام الاسبوع // 14 ـ 16
6 ـ من يوميات الحسن بن الصباح / مطبعة لافوميك / ص 32
7 ـ نفسه / 52
8 ـ نفسه / 25
9 ـ نفسه / 17

اعلان في فائدة الغائبين (1)

كبرت على صدر الرمال محبة الفقراء للفقراء ،
واخضر في جذع النخيل دم القبيلة :

ـ أيها الفقراء
قوموا عانقوا الرمل المخضب بالدماء ،
فثورة المليون تعلن باسم هذا الشعب
ـ لا حرس الملوك ـ

مسيرة الثوار ،
واحتفلي (عيون) بثورة الفقراء

البحر يأخذ شكل وجهك
والموانئ بعض أمواج
يداعب لونها قمر ،

وفي عينيك اشواق تنادينا لنهتف بـ (العيون) :
عيوننا الثوار ـ لا حرس الملوك ولا سيوف امية ـ
من كان باسم الله يحرسكم ـ
انبذوه

مَن كان باسم العرش يرعاكم
اقتلوه
من كان باسم الساسة الزعماء يحكمكم
اصلبوه
فالله ليس عبادة
والعرش ليس وراثة

والقادة الزعماء
ليسوا انبياء

---

1 ـ اطفال بورسعيد يهاجرون الى اول ماى / 31 ـ 35

يتسكع الشعراء في دمها
ويمتهنون قتل الوقت
والفقراء اوسمة ..
يقدمها الملوك
الى الملوك هدية

وانا وانت يشدنا عرق السواعد والجبين
وليس اوسمة الملوك

مذ صار وجهك مشرقا
بدأ الرهان عليك
ان شئت الصراحة ،
فالعيون طريقنا للموت
والشهداء

جبنا الشوارع في انتظار الفاتحين
وكنان يحملنا على اكتاف هذا المغرب العربي
زياد
وليس امية

مولاي هذا الشعب ليس بضاعة
باسم القصور يصدر

مولاي ان الموت اهون من اراقة ماء وجهي نخب هذا المحفل الدولي والملكية
باريس تسرق منك لون سواعد العمال والفقراء
وتمد .. قصرك بالجوارى
وبداك مازالت ملطخة بلون دم العبيد.
حرس البلاط
يحاصر الرمل المخضب بالدماء
وصوته الملكي
باسم الله اكبر
يجمع الاسماء

والجوع ينمو فوق أرصفة المدينة
مثلما تنمو الجوارى في قصورك
والعبيد

يا ايها الوطن الجديد
اللون احمر
والشعار محبة
واخوك فلاح وعامل مصنع

ونظل خلف عيوننا
لندين كل الساسة الزعماء .

وقع اختيارى على هذه القصيدة التي بدا لي انها تعكس - ايضا - الموقف الذى شخصته قصيدة (الى شاعر القصر) ، فهما يتفقان على ان الانسان العربي بخاصة والمسلم بعامة يعيش - هذه الفترة - في غربة سحيقة نجمت عن غيبوبة سابقة .

ان ما يستشف بوضوح في هذه القصيدة هو تلك المفارقة لظاهرة النفاق ومخلفاته في الوضع السياسي العربي الاسلامي الراهن ، فقد اصبحت هذه الظاهرة شبه مشروع تعاوني ينطبق عليه ما يطلق عليه في علم الاجرام (الجريمة المنظمة) التي يشترك فيها كل من كان له في الغنيمة نصيب.

... ثورة الشهداء على الزعماء ، وتمرد الفقراء على الاغنياء ، هو اهم محور يستخلص من هذه القصيدة : فمن حاول ان يحكم الناس باسم الدين فان الفقراء قد ورثوا عن الشهداء ان الله فوق الجميع (1) ، وان من الواجب نبذ كل من ادعى امتلاك عصا موسى .

كما ان الذين تشبثوا بالعروبة في حكمهم قد نسوا وصية الشهداء التي تقول : ان العرش لا يورث وان على كل من ادعى حق خلافة فرعون في الملك ان يرجم قبلما يغرقه طوفان الشهداء . اما الساسة الذين لاذوا بالزعامة واتخذوها مطية لحماية الفقراء فان الشهداء قد اوصوا الفقراء بان ما بين الزعامة والنبوة مسافة مابين الارض والسماء ، وان هذه المسافة تكفي للتصدى الى كل من يبارك هذا الوطن بغير تضحية (2) .

فمن هم هؤلاء الساسة الزعماء الذين جمعتهم مؤسسة النفاق على جناح ارواح الشهداء وعرق الفقراء ؟

تحصر القصيدة الطرف الاول في جبروت التسلط المتمثل في بعض الانظمة التي راحت تفرض - باسم الله اكبر - تطويقها للفقراء ، وباسم العرش تفرض تسلطها عليهم .

1 - اطفال بورسعيد ... / 22 ، 27
2 - من يوميات الحزن .... / 29 ، 49

... فلا تزال قميص عثمان معلقة (1) ولا زالت مساحة النهوم تمتد من يافا الى الساقية الحمراء (2) ، ولا زالت ثروات الفقراء موزعة على بنوك الاغنياء (3) ، ولا زال الزمن يتوضأ من عرق الكادحين ويشرب نخب انهزامهم امام سادة الموقف العربي (4) ، ولا زالت لبنان تنادى هل من جسر عربي (5) يصرخ بالكبرياء العربي (6) ويرفض جسور النفاق العربي (7) .....

حقيقة انه (ما كان يكون) (8) ، ولا ادل على هذا من ان الفقراء لا زالوا متشبثين بنداء الشهداء الذين فضلوا طريق الموت الكريم على طريق العيش اللئيم . (9)

يتصارع في هذا الميدان اذن الماضي المجيد ، ماضي عقبة بن نافع وابي المهاجر (10) وطارق بن زياد (11) ... آباء الفاتحين الحاملين على اكتافهم وحدة المغرب العربي (12) ماض لم يتعلم منه الشهداء سوى المجد والكبرياء العربي (13) ـ مع الحاضر التعس ، حاضر الوطن الجديد ، وطن القصور والجوارى ، وطن الهزيمة والذلة ...

1 ـ من يوميات الحسن بن الصباح / 39
2 ـ نفسه / 55
3 ـ نفسه / 42
4 ـ نفسه / 22
5 ـ اطفال بورسعيد .. / 21
6 ـ نفسه / 24
7 ـ نفسه / 24 ، 57
8 ـ عنوان قصيدة / نفسه / 36
9 ـ نفسه / 33
10 ـ نفسه / 61
11 ـ نفسه / 33
12 ـ نفسه / 33
13 ـ نفسه / 24

لقد بات من اللازم الولوج الى عالم هذا الزمان الصعب (1) بالسيف (2) سيف الحجاج ـ قاهر الشقاق والنفاق ـ (3) الذى لا محالة ـ سيورق من جديد في جبين الفاتح العربي (4) ....

نستخلص من هذا ان هناك خللا ما حدث في الزحف الحضارى المسافر عبر قنوات الدم العربي (5) ، والا فكيف يتحول الشعراء الى متسكعين في دماء الشهداء ويصير الشهداء مجرد اوسمة تهدى ، ويتحول الفقراء الى عبيد في قصور شيدوها بعرق كدهم وسقم جوعهم (6) ؟

امست الموازين مقلوبة : لقي الصديق الوفي عقاب العدو اللدود ، ولقي السلف الامين من الخلف العاق المهانة والنكران . (7) فكانت مغبة هذا التصدع الذى حدث لصرح الامة العربية الاسلامية ثورة عارمة على حرس الملوك ، وادانة الساسة الزعماء ، ورفض الانتماء لهذا الوطن الجاهل لأسماء تجار البلاد العربية (8)

فمن هم هؤلاء السماسرة الذين غيروا ما بأنفسهم فغير الفقراء ما بهم ، وتخلى الله عنهم (9) انهم اصحاب انظمة الردة (10) الذين يملكون ولا يملكون (11)

وقد غاب الشهداء ، واعيد ترتيب الحقائق فكان مصدر الصوت رشاشا أتى يبارك دم الشهداء (12) ، ويعلن جهارا (اعلانه في فائدة الغائبين) : لندين كل الساسة الزعماء ....

1 ـ اطفال بورسعيد .. / قصيدة / افتتاحية لزمن صعب / 21
2 ـ نفسه / 25
3 ـ نفسه / قصيدة / نفسها / 24
4 ـ نفسه / قصيدة / احلام سيرة / 60
5 ـ نفسه / 61
6 ـ نفسه / قصيدة / اعلان في فائدة الغائبين / 32 ـ 34
7 ـ من يوميات الحسن بن الصباح / 44 ، 51
8 ـ اطفال بورسعيد .. / قصيدة / هوامش .. / 13 ـ وقصيدة / كان يمشي في الجنازة :
9 ، 10 ، 11 ، 12 ـ اطفال بورسعيد .. / 17 ، 15 ، 46 ، 29 ـ 30 ، 59 ، 58

حـزن علـى حـزن

اعتـاد النقاد الواقعيون تصنيف الادباء في دائرتين عامتين : دائرة الادبـاء الملتزمين ودائرة الادباء اللاملتزمين . ويبدو ان هؤلاء النقاد اعتمدوا في وضـع تصنيفاتهم على قاعدة شبه ثابتة ، تنطلق من منطلق واحد ، هو علاقة المضمـون الادبي بالواقع الظرفي ، بحيث ، كلما كانت حبال هذه العلاقة متينة كلما كانـت اواصر الالتزام وطيدة ، وكلمـا كانت حبالها هشة كلما كانت اواصر الالتزام رخوة...

وسليمان جوادى شاعر ملتزم بأدق ما تدل عليه كلمة التزام ، ولكن شعره لا يخضـع ـ دائما ـ لقاعدة (الواقعية المضمونية) التي بنى عليها هؤلاء النقاد احكامهـم ، انه يهرب ـ احيانا ـ متأبطا اتراحه ـ الى مخبأ الشعراء اللامنتمين ، ويهرول احيانا اخرى ـ الى برجه العاجي ، فارا من مآسي الواقع ـ الى داخل كهف منعزل ، يئـن فيه ، خوفا من ان يسمعه السامعون ، فيلقون به في غياهب الجب (12) .

على ان هذا الانزواء ما هو سوى (رحلة يائسة عبر بحور الشعر) (73) ، يتخلى فيها الشاعر عن كل امنياته الساحرة ، رغبة منه في المحافظة على قبس من روحـه الشاعرة (87) .

كما ان هذا لايعني ان سليمان جوادى يلوذ بالفرار خوفا من مواجهة الواقع ، بل هو يهرب من الواقع من اجل مواجهة الواقع : هو اشبه بذلك الفارس الذى لا يرتد الى الوراء الا لكي يكون اقدامه (كجلمود صخر حطه السيل من عـل) .

الا صفقـي بيـد واحـدة

ويحتكر العرب كل الهزائم
يحتكر العرب كل الشتائم
يحتكر العرب كل القضايا التي لا تحل
وكل الشموس التي لا تطـل
وكل السيوف التي هشمتها المعجزات
او شغلتها الفتن

ويحتكر العرب حتى السيوف التي لا تسل

ويحتكر العرب كل الكوارث ، كل المحن

كل القلوب التي فتتتها الملذات

كل القلوب التي قد تحب الذى لا يحب

وتعجز عن حب هذا الوطن

فماذا اذن يا فلسطين تنتظرين

من الادعياء العرب ••••؟؟

فماذا اذن •••

فماذا اذن •••

وماذا تريدين بيروت من هؤلاء العرب ••؟

صلاح مضى

ومضى خالد وابو خالد

هل تريدين ليلة انس وحفل طرب ••؟

مضى طارق واستقال الحرس

فلا ليلة الوصل عادت

ولا عادت الاندلس ••

تموتين بيروت ••

لا لن تموتي ••

فنحن هنا جسد واحد

اذا ما اشتكى منه عضو

تداعى له سائر الجسد

ونحن هنا امة كم لديها من المال والعدد

تموتين بيروت ••

لا لن تموتي •••

فلا شك ان الاله سيسمع سيل الخطب

ويرفع عنك العطب

تموتين بيروت ••

لا لن تموتي

فداك لسان العرب

— — — —

ونحتكر الان كل العقول التي لا تفكر

الا باذن من البطن

حتى بقايا البقايا التي بين افخاذنا

بترت وانتهى صاحب الامر فينا

فماذا اذن يا فلسطين تنتظرين ••؟

وماذا تريدين بيروت

لا غير ابنائك الاوفياء

يصد الذى تشتكين

ولا شئ غير سلاحك انت

يواجه اسلحة المعتدين

فموتي اذن صامده

وكوني على خزينا شاهده

ولا تطلبي العون بارده

واصواتنا رغم حدتها لن ترد النوب

واشعارنا رغم ثورتها [illegible]

لن تعيد الذى من زمان ذهب

— — — —

الا صفقي بيد واحدة

ومـوتي مقاتلـة صامـدة
فقـد يشفق المعتدون عليك
ولا يستجيب العرب!!!!! .

وقد اخترت من ديوان (قصائد للحزن واخرى للحزن ايضا) (1) هذه القصيدة التي بدت لي انها تدور في الفلك نفسه الذى دارت فيه اغلب قصائد الشعراء الجزائريين المعاصرين . فهي ــ كما سنرى ــ ثورة عارمة ، وصيحة ساخطة على (الانا) بل (النحن) الذى لاذ بالصمت تجاه ما يحيف به من مكائد خسيسة وسدّ عينيه حتى لا يرى ما يلتف حوله من مهازل ساقطة ....

تعد هذه القصيدة من الشعر الذى يوصف ــ عادة ــ بالسهل الممتنع ، فهي بسيطة ، ساذجة ، لا تكاد معانيها تعسر على أى قارئ ، ودلالاتها تطفح على السطح دونما يحتاج المتلقي الى اجهاد فكره ، انها ــ بعبارة اخرى ــ (قصيدة) تقصد الى مبتغاها قصدا دون ان يحيلها عن قصدها تركيب معوج او استعارة معقدة ولعل هذا النوع من الشعر هو ما كان يريده عباس محمود العقاد في دعوته الى شعر الطبيعة ، والذى حاول الاتيان به ــ دون ان يبلغه ــ في ديوانه (عابر سبيل) .

... تصور هذه القصيدة حال الامة العربية في الوضع الراهن ، ويا له من وضع امست فيه الأمة الامجاد . لقد بات (النحن) نقيض سلفه ، صار يصبر على الهزائم ويطمئن الى الفتن ، ويفتتن بالملذات ومحافل الطرب وبلياليالي الانس ... ويتغنى بثرواته الزائلة ويتبجح بخطبه الواعدة ...

ذلك ما يشع من هذه القصيدة ، وهو ما حاول الشاعران يصدم به الانسان العربي لعله يفضل ــ يوما ــ الموت على ذل الصبر (11 ، 13) .

ولا شك في ان ما يشد انتباه القارئ في هذه القصيدة ، هو تلك الخاتمة التي هي مفتاح بيت القصيد ، اذ جاء فيها انه بالرغم من ان عضوا من اعضاء هذه الامة لا زال

1 ــ المؤسسة الوطنية للكتاب / الجزائر 1985

يشتكي ويئن تحت نير المعتدى فان سائر الاعضاء الاخرى لم تستجب له بعهد ، بل هي تنكرت له وغضت جوارحها عن آلام الحمى التي تجتاح مفاصله ... حتى صلدت ، وتحجرت قلوبها ، فكانت افئدة المعتدى الغاصب اشفق عليه ــ بكثير ــ من قلوب اخوانه الاعضاء التي اجتازت مرحلة النقاهة .

فهل وصل الامر بالنحن ان اصبح ضعفه وتخاذله يستدر عطف عدوه ورحمته ؟ لعل ذلك ما دفع الشاعر الى ان يلملم حزنه ويتقوقع داخل شرنقته ، مفضلا النحيب في صمت (9) على الصراخ في المحافل الدولية .

ومهما يكن فان هذا ليس ارتياحا ولا قناعة من الشاعر بحكمة المتآمر (71) ، وانما هي احزان حتمها الانتماء الى هذا النحن القابع في اسفل الدرك (9)،(13) .

كما قد يرجع سر هذا الاعتكاف الظاهرى على الحزن الى فطرة الشاعر التي فطر عليها منذ صباه ، فقد ورث الحزن عن ابيه ، يقول في ركن الاهداء : "الى والدى الذى علمني كيف احتكر الاحزان ... اضيف هذه الاوجاع" (5) التي أبى الشاعر الا ان يلقبها (بقصائد للحزن واخرى للحزن ايضا) . فهو يقر بانه اصبح ــ شأن ابيه ــ مدمنا على الحزن :

ــ رافقت حياتك جرحا جرحا
أدمنت الحزن بعينيك (65)

ــ تعودني الحزن ...
ادمنني الحزن ...
لا تكترث ايها الشاعر (77)

ــ رفاقي ....
ففي سركم تدركون ...
ادماني الحزن والاكتئاب ... (99)

الحزن وما ادراك ما الحزن ، لا يلجأ اليه المرء المراهق الضعيف (81) ، انه ملجأ للاقوياء العظماء (63) الذين يحاربون اليأس ــ الذى قد ينتابهم لظروف اقوى منهم (26) ــ بما يلجأون اليه من تحضير محكم من اجل اعادة الكرة على الخصم

يتساءل الشاعر ـ متبرما ـ : وماذا عن الحزن ؟ (21) ، وهذا بعدما رفض الخذلان الذى ألمّ باعضاء الوطن العربي الكبير :

ـ لكم دينكم سادتي

ولي الرفض واللاقبول (18)

ثم يضيف ـ حين يشتد به الحزن ويتذكر الملايين من الاشقياء من (نحنه) (22) :

ـ الى آخر الحزن يا بشرية ..... (23)

اتخذ الشاعر الحزن تعويذة ضد هذا النحن الحزين، وهو يعترف بانه حزين لهذا الموقف (46) الذى جعله يواجه الحقيقة المرة (47) ، حقيقة النحن الذى لا زال ، يقول ـ مناقضا ـ : (العالم اليوم بخير) (31) ، متجاهلا بذلك المكائد التي تدبر ـ في وضح النهار ـ ضد السواد الاكبر من ابنائه (53) .

وكما هو واضح فان ظاهرة الحزن قد ارتبطت عند الشاعر بظاهرة اخرى ، هي قضية (الانتماء) الى هذا النحن الكسول (57 ـ 60) والالتزام بمعالجة حزنه ، ولا ادل على هذا من (قصائده للحزن والانتماء) (61) التي تؤكد هذه الفرضية ، ففيها يربط الشاعر ـ ربطا جدليا ـ بين ظاهرة الحزن التي خيمت على ذوى الافئدة الحية من ابناء الوطن العربي وبين قضية الانتماء التي باتت وصمة عار في جبين كل من وسم بها (20 ، 101 ، 109) .

ولما كان لا مناص من ازالة الحزن الذى استشرى في مفاصل هذه الامة فان كثيرين من ابناء النحن لم يعودوا يطمعون سوى في تمثيل دور السعيد ، وهذا لايتسنى لهم ايضا ، الا بالصبر على الشقاء ونكران الذات ، وعندئذ يمكنهم ان يضعوا او يخفوا الحزن تحت المخدة (130) ، ويناموا ملء جفونهم ، قبلما تتفرقع قنبلة الحزن وتنجب بعدها ثورة (15) ....

هذه اطلالة شعرية حزينة على ما وصلت اليه امة العرب من تفكك ، وهي ـ ايضا اشارة صريحة الى ان الشاعر لم يعترف بمنطق القوى :

صديق صديقي يساوى صديقي ...

عدو عدوى ...

يساوى صديقي

الى آخر الكذبة المنطقية (14)

ولم يعد يؤمن بحكمة المتآمر :

ان الذى فات مات (74) وان كل شيء ضاع (87) ، وان النحن اصبح ط..ز..ز (91) ، وما أحلى النوم (59) ، والسلام عليكم (15) ...

لم يقل شاعرنا هذا ، انه قال :

انا قد نهضت لانشب ثورة (84) ، ولأرفض ان يتفرد بالخير غيرى (27) .. وهو المطلوب.

أغنيـــة حزينـــة

أزواج عمر أديب شاب طموح ، متعدد النشاطات ، جرب طاقته الابداعية في القصة والشعر كما حاول الدخول الى عالم النقد والمقالة . وقد اخترت في هذا المقام قراءة قصيدة له بعنـوان :

حديث حبيبـتي

حدثتني عن بكاء الطفل في يافا الغريقة
عن جريح عانق التربة مشتاقا الى صدر الوطن
عن دنا الحزن وعن ذكر المحن .

حدثتني .. وهي تبكي وتمد الرمش جسرا للذين
قتلوا لكنهم قالوا : وعدنا لوعظاما نحن نأتي
وأمالت رأسها نحوى ومرت في السماوات عصافير الوطن
نهضت .. ضمت ذراع الصمت ، والتحنان ، في لهفة من
عانق احلام صبـاه
ثم غنت : ربما هذى العصافير دماء البسطاء
ربما ارواح كل الشهداء .

حدثتني في بسـاطة
عن زمان صار فيه الرأس ممدودا الى الارض وساق للسماء
عن زمان الموت ـ والموت وقوفا
وعن الجوع الذى امسى يغني في الدروب
عن غريق في الكروب
نظرت والدمع يحكي :
نحن ضعنا وانتهينا يا صديقي
عندما صار الطرب
بعض افيون العرب

حدثتني في بساطة

وانا اغسل حزني ، أتعرى يا صغيرة ..

في عيونك

انسج البيرق عيد

واعيد ..

حلما كان قديما يتغنى في الملامح

يا صغيرة

علميني

ان اغني للخلاص

علميني كيف اقرأ

في جراح البسطاء

في دماء الفقراء

صبحنا الاتي قريبا

حدثتني عن سقوط الثلج . والثلج حزين

وانا في مقلتيها كنت دفئا ذوب الثلج الحزين

وعذابات السنين

ليت هذا العالم المحزون كوخ

وانا ضوء فرح

ليت هذا العالم الظمآن حقل

وانا قوس قزح

ليت يا صاحبتي تنقلب الارض سماء

اننا آه مللنا عفن العالم .. عصر الموت والموت جياعا !

تنطلق هذه القصيدة (1) من نقطة الكفر بالوضع العربي الراهن وتنتهي برفض تقوقع العرب

1 ـ ازراج عمر / وحرسني الظل /ش.و.ن.ت/الجزائر/ ط2 / 1984 / ص 5ـ8

على انفسهم واجترارهم لمباديء غيرهم .

وتنشطر هذه القصيدة الى مجموعة من المقاطع :

ـ يبدأ المقطع الاول بحديث الحبيبة عن الحزن الذى عمّ السماء العربية .. وعن البكاء الذى الـمّ بالطفل العربي .. وعن المحن التي عانقت الوطن العربي .

ـ ثم اجهشت الى البكاء وهي تحدث حبيبها عما وصلت اليه حالتها الراهنة .. ولكنها تبقى ـ ولو في عالم اللاشعور ـ متفائلة بدماء البسطاء الابرياء وارواح الشهداء النزهاء ، فلربما سيغني اطفال الوطن العربي ويمرحون في ساحته الطاهرة ...

ـ ثم سرعان ما تنتفض في المقطع الثالث لتحدثه عن الذل الذى صار علة اولاد هـا ، وعن الجوع الذى بات يتبختر في الدروب ، وعن الطرب الذى صار ترياق العرب ،وعن ..

ـ ويبدو ان الشاعر قد سئم من حديث الحبيبة التي دأبت على التحدث اليه في كل مرة ، لقد ازعجه هذا الحديث الرتيب الغثيم الذى لا يتعدى التشنج والبكاء الخافت ، فهـو يفضل ان تحدثه عن حاضره الذى يبني فيه مصيره ...

ـ ويستمر الشاعر في تسلق سلم التفاؤل الذى غمـر وجه حبيبته ، واضفى على نور مقلتيها دفء السنين المقبلـة . ثم زاد انتعاش الحبيبة ـ اكثر ـ لما احست ان حبيبها قـد عقد العزم ان تحيـا في كنفـه .

ذلك ـ بايجاز شديد ـ ما لخصته مقاطع هذه القصيدة من مواقف تشير الى ما اصاب الشاعر من حزن وألـم لما بدأ يعي حديث الوطن الجريح .

ولعل اهم ما يلفت نظر القارئ في هذه القصيدة هو النغمة الحزينة التي تطفـو على سطح ابيات هذه القصيدة ، وتلك الرائحة الكئيبـة التي تكاد تزكم انوف القراء المتفائلين ، انها رائحة الانتماء الى واقع قوم صارت رؤوسهم ممدودة الى الارض واصبح الطرب افيونهم والجوع شعارهم .

ولكي يتيسر لنا متابعة جانب محدد من دلالات هذه المقطوعة اخترت ان تتوقف قراءتي عند متابعة طرف من ظاهرة الحزن التي خيمت على جـو هذه القصيدة بصورة خاصة وعلى كافة قصائد الديوان بصورة عامة ، كما ان متابعتي لظاهرة الحزن قد يخـد م

ما سبق التطرق اليه في قراءتي السالفة .

فقد تردد في هذه القصيدة لفظ الحزن مرات عديدة ، ذلك فضلا عن مرادفات له ،

اما ما تردد في باقي القصائد فنحصره فيما يلي :

– اغنية السعادة :

– آه يا سيدتي اعرف اني احمل الحزن صليبا (10)

– .. هكذا الحزن يظل ..

دائما زاد القمر (12)

– رباعيات :

– يامة حزن على الصخر تبكي صباح الطفولة (15)

– سيناء :

– لذا حبيبتي ترينني دوما حزين الروح كالمساء (18)

– انا اعرف ان الحزن غيمة في القلب (18)

– انت جميلة العينين

يا امرأتي الحزينة (19)

– الموناليزا :

– آه موناليزتي .. انت حزينة (24)

– عبر احزان الشر (25)

– سيحيل الصمت موسيقى .. وحزن القلب حقل الياسمين (25)

– ولذا دوما تراها .. تخفض الرأس حزينة (26)

– حينما تنقر حزني يدك الممدودة الشريان نهرا من حنان (26)

– على باب قصر الحكومة :

– حزننا كملعقة ما تزال تنادى حبيبا اذا حان وقت العشاء

(30)

– الهبوط الى القصبة :

– نما الحزن عشبا على شفتي (37)

– غن لنا ام فؤاد المغنى حزين (37)

– وينشر احزان من سور لسور" (38)

– الوصية :

– أيا نورس الحزن ابك (69)

– وحشة :

– نشلوا جيلا حزين (90)

– ليس حزنا ان رحلنا (90)

– ليس حزنا ان رحلنا (90)

– حب :

– نما قال رب السماء اعبدوني وانتم حزانى (93)

– صليحة :

– .. لانهي اسباب حزن الشجر (100)

– تكف السماوات عن حزنها والبكاء (104)

لعل ابرز ما يمكن استخلاصه من ظاهرة انتشار الحزن في قصائد هذا الديوان ان دلالة الحزن قد ارتبطت ارتباطا وثيقا باللوم الذاتي الذى يوجهه – عادة – المذنب الى نفسه بعدما يدرك – نتيجة نضج وعيه واستفاقة ضميره – انه على باطل .

ولا ادل على هذا من ارتباط ظاهرة الحزن هنا بالرغبة الجياشة في القضاء عليها ، فالشاعر قد اكد – في قصائد كثيرة – انه عازم على اتلاف شبح الحزن الذى ألمّ بحبيبته

– وأنا اغسل حزني ، اتعرى يا ضفيرة ..

– وانا في مقلتيها كنت دللذوب الثلج الحزين

– فما قال رب السماء اعبدوني وانتم حزانى

– تكف السماوات عن حزنها والبكاء .

ولو وضعنا رسما بيانيا لدلالة الحزن في شعر الشاعر فاننا سنجد ان سحابة الحزن تكون كثيفة لما يواجه الشاعر بوضعه الحالي ، ولكن بمجرد ما يشرع الشاعر في التطلع الى الغد تبدأ غيمة الحزن في التبدد والانقشاع ، ويمكن تشخيص ذلك من خلال هذا

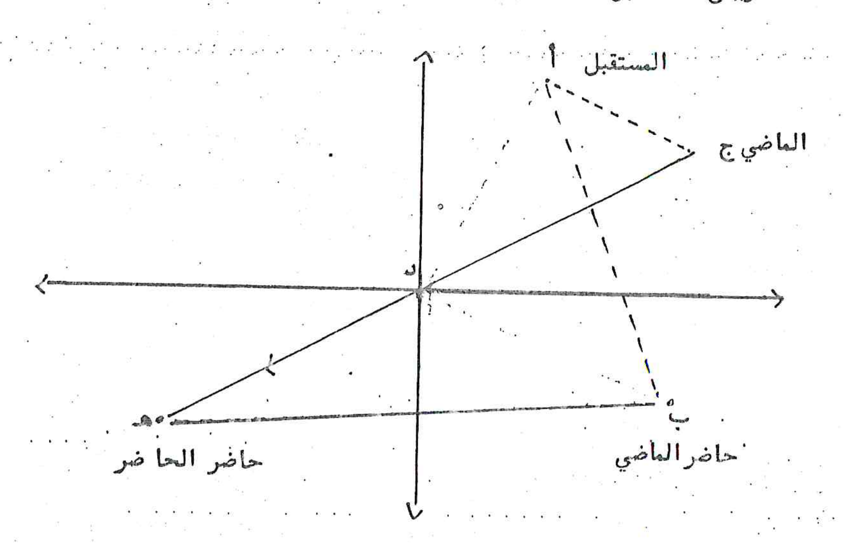
المقطع : نحن ضعنا وانتهينا يا صديقي عندما صار الطرب
بعض افيون العرب .

يمثل هذا المقطع الحيز الفاصل بين مرحلتين زمانيتين :

ـ مرحلة المجد الماضي التي تنتهي عند نقطة التحول الذى حدث لامة العرب (وتمتد هذه المرحلة تنازليا من (ج) نحو (هـ) .

ـ مرحلة تعاسة الحاضر (وهي تمتد افقيا من (ب) في اتجاه (هـ)

ـ ويبقى المستقبل نقطة مجهولة بين المحورين (يدور حول نفسه في نقطة الصفر)



ويستشف من خلال هذه المسافة الزمانية ـ التي تمتد من الجثث النائية .. الى الجثث المقبلة (95) ، والتي قطعها قطار الزمان (14) عبر مسيرة الحبيبة الحزينة ـ ان الشاعر يقف اليوم واخوانه في محطة الحاضر الحزين ، وهم يرنون الى ما بعد الآتي وليد التقاء الماضي التليد مع المستقبل الطفل .

ان الشاعر متفائل ـ بالرغم من سحابة الحزن التي قذفتها عليه رياح الحاضر ـ انه يغني للخلاص (7) ولكل العيون التي في انتظار الصباح (13) . انه متفائل بمرور قطار الزمان (15) ، ولو كان هذا القطار متخلفا في الحاضر (17) .

لقد ادرك الشاعر بحدسه ان الموت حق (18) ، وان الحب قدر (19) وانه لكي تتطهر الحبيبة من رجس القيد ان تفجر منابع الحب وتفتح ابواب الموت : يقول :

ـ لا بد ـ لكي يغتسل التراب ـ ان تنفجر الرياح والسيول (19)

ـ لتسقط شفاه تريد الصياح
لتسقط اغان تقلد صوت النباح
فما قال رب السماء اشكروني
وانتم كـــلاب .. (94)

وهو ما سبق ان اشترطه ابو القاسم الشابي (+) ، على انه اذا كان الشابي قد كفر بالذى قيد الانسان العربي وجعله يرفل في الحضيض ، فان ازراج عمر قد كفر بالذى خنق براعم السعادة في بستان الحرية .

نصل من هذا الى ان الحبيبة عانت ولا تزال تعاني من كيد الكائدين ، وان ما أثار حنق الحبيب هو تقاعسه عن القيام بواجبه نحوها

+ ـ انظر قصيدته / ارادة الحياة / التي مطلعها :
اذا الشعب يوما اراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد لليل ان ينجلي ولا بد للقيد ان ينكسر

ذاكـــرة الطفـولـة

الغرباء طلع وانفجــار(1)

بحت الاصوات والدرب خواء
وتساوى الشعر بالافيون
والايام تابوت خريفي يلم الغرباء

+ + +

نجح المؤتمر المنعقد الالف ...
وطن النفي الجرائد
خدروا السيف وهاموا بالمراثي
واذاعوا رفضهم خلف الموائد

+ + +

عندما يسألني الاطفال عن (يافا)
عن الاوراس ، عن (غزة)
تصب النار في صوتي
ويغدو الحرف سيافــا

+ + +

ان نهرا عاشقا لوني وجلدى
لاتساويه محيطات البحار
فدعوا موجي لعصفور يغني
نصف موالي له ، والنصف وحدى ...

+ + +

---

1 ـ عياش يحياوى ـ تأمل في وجه الثورة / ش.و.ن.ت / الجزائر 1983 / ص/ 31 ـ 32

ركض القهر على حد السيوف

قدر يا شاعر الميلاد ان يحرق صوتك

وتباع القدس ••• يحرق صوتك

قدر قهقهة الريح وانات الكهوف

+ + +

رغم ترحال الحقول الغجرية

واغتراب النبض والانفاس

رغم الوطن الضائع في الاوطان

انا الرعد الذى يأبى سوى عرس الهوية •••

+ + +

العصافير تناديني رفيق الابد

الشماريخ تناديني رفيق الابد

سألوني : من تكون ؟

قلت : طلع وانفجار في مرايا بلدى ••

روى عن عياش يحياوى انه قال " ••• انني لا افهم لماذا اكتب الشعر ولكني افهم ما اكتب ، واعلم ان طفولتي هي اعظم قصيدة اطمح الى كتابتها •••• وتبقى ـ في نظرى ـ الطفولة هي اعظم خزان ،يستقي منه الشاعر عصارة تجاربه الابداعية ، وما زلت الى الان ، كلما فرغت من كتابة قصيدة ابصرت فيها بعض ملامح طفولتي التي نسيتها منذ امد بعيد "(1) •

دأب الشعراء بخاصة والادباء بعامة على ارجاع اعز ابداعاتهم الى ذاكرة الطفولة،

1 ـ حوار مع الشاعر عياش يحياوى / جريدة الجمهورية / 11 مارس 1985 / النادى الادبي / السنة الثامنة / عدد 366 / ص 2

كما حاول نقاد كثيرون استخراج ملامح الطفولة من اعمال الادباء ، ولعل اشهرهم في النقد العربي المعاصر : مصطفى ناصف الذى خصص كتابا كاملا لملامح الطفولة في ادب المازني ، كما ركز النقد النفسي بعامته على مكانة الطفولة في الابداع الفني •

ان عالم الطفولة عالم فني بطبعه ،ففيه يعم صفاء البراءة ، وينتشر الود ،ويورق الطموح وتنبع الاحلام •••

ولا جدال في ان هذا ما ترحي به قصائد ديوان (تأمل في وجه الثورة)، ففيها قد تردد شبح عالم الطفولة ترددا يدل على مدى تعلق عياش يحياوى بأيام طفولته ، وتشبّثه بذكريات مآسيها :

أنـا ما كتبت قصيدة عرضا   فقصائدى اعصار مأساتي (35)

وقد اخترت في هذا المقام قصيدة (الغرباء طلع وانفجار) التي تصور ثورة جياشة على وضع ساكن ، فضل اصحابه صراخ الاطفال على صيحات الابطال وآثروا شعارات الرفض وحماسها على دوى الطلقات ونيرانها •

هذا بصورة اجمالية ما تشير اليه هذه القصيدة ، غير ان ما نريد الاشارة اليه في هذه اللمحة الخاطفة ، هو الموقف الذى وقفه الشاعر الطفل من البالغين القائمين على خدمة البلاد : لقد أصرّ على انهم قد اجرموا في حق مصير الاطفال •

ثم ان ما يؤكد هذا الموقف ايضا ان الشاعر قد اهدى ديوانه الى كل الذين ظلموه علما بان الظالمين هنا ليسوا غرباء عن الشاعر واقرانه ، انهم الذين يتقاعسون اليـــه ـ لاسباب واهية ـ عن اتمام واجبهم نحو انفسهم •

هل أراد الشاعر بموقفه هذا ان يزرع طيف اليقظة في نفوس هؤلاء ، وكفّهم عن منافقة انفسهم في حضور سماسرة النفاق ؟ أم كان يهدف الى تنبيه الغافلين من بني قومه الى ما قد يلحق بهم ، اذا هم تمادوا في غوايتهم ؟

ثم ان ما يؤكد عزم الشاعر الطفل على تجاوز مرحلة طفولة الكبار هو حثه للاطفال على ضرورة تحمل مسئولياتهم نحو انفسهم :

الامس ولى •• والغد الاطفال   لم تبق للقيم الخراب ظلال (39)

كان تخاذل الكبار وضعفهم سبب غربة الاطفال وجفوتهم للسلف المجيد :

ما العرب الا رغوة هجينة   بفم الزمان وعصبة مهدار (47)

شب الاطفال في أحضان حكايات الفارس الاسمر (43) ، وعشقوا بطولات خالد وطارق (48) والاوراس وغزة .. (31) ، واشتاقوا الى ذلك اليوم الذى سيحققون فيه أمنية ابن باديس (51 – 53) :

يا نشء أنت رجاؤنا   وبك الصباح قد اقترب

وبذلك يقطفون حلم الطفولة (57) ....

ذلك هو منطق الشاعر الذى تأمل كثيرا في رجه .. مسيرة الثورة العربية (45) ، فأدرك أن السلف المعاصر لا يستحق اكثر من رسالة عتاب (11) على وعوده الباطلة (8 – 9) التي مر عليها الغد و " ما بعد الغد " (232 – 24) ، اما الشاعر الطفل فانه تأمل في التاريخ الماضي ولم ير فيه سوى ذلك الشبح المخيف الذى بدأ يتلاشى في الافق :

شاخ سيف الجهاد يا نخوة الاو   راس في موطن بصيراعور (43)
تلوك احلامنا الاحزان .. تسحقها   ونحن نحن .. بقايا هذا السفر
الناى والمزهر المخزون غايتنا   والشعر والخطب العجفاء والوتر (50)

وهنا يكمن سر عدم التفاهم بين الشاعرين : الاول ، يرى الواقع بعين الماضي ويقيس ثماره بمعيار المستقبل ، ويراه الثاني بعين المستقبل ويقيس ثماره بمعيار الماضي ، وكلاهما يفتقد الرؤية الحاضرة ، وهي ما حاول عياش يحياوى تبسيطها في هذه القصيدة .

وسام الخلود

اناس ظلوا يدقون ابواب الشعر حتى كلت ايديهم ، ولم يستجب لهم شيطان الشعر ، واناس أطلوا من بعيد على بستان الشعر فهرول اليهم شيطانه يرحب بهم ويستحثهم على الدخول الى عالم ملكوته الواسع.

ومما لا شك فيه ان الشاعرعبد الله بن حلي يدخل في دائرة الزمرة الاخيرة ، فهو لاينظم الشعر الا نادرا ، وكثيرا ما ترك القصيدة بتراء ، وقذف بها في درج المهملات لتلقى حتفها .

وشاءت الصدفة ان تفلت – من بين أنامله – مولودة جديدة ، فاحتفلنا بيوم (سبوعها) الذى وافق الذكرى العشرين للاستقلال الجزائر .. وسماها أبوها الشاعر " وسام الخلود "(1)

نالت (أوبيريت) وسام الخلود الجائزة الاولى في المسابقة الوطنية التي نظمت بمناسبة الذكرى العشرين للاستقلال ، وبذلك تكون هذه المولودة قد نجت من حكم الوأد وأحرزت لنفسها على وسام الخلود الابدى .

ان هذه الملحمة قد لخصت تاريخ الثورة الجزائرية الطويل ، في لوحات ومشاهد حية ، تجعل المتلقي يعيش سنوات مسيرة الثورة ، في غمرة من السحر الفني

ولا أدعي انني سأقرأ الملحمة كلها ، ولا حتى شريحة منها ، فهي تحتاج الى وقت طويل ومكان اطول ، انما سأقتصر – في هذه العجالة – على اشارة خاطفة للوحتين اثنتين فقط ، وهما :

اللوحة الثالثة من لوحات ثورة الفاتح من نوفمبر ، وهي تحكي قصة شهيد ضحى بنفسه لانقاذ رفقائه ، اما اللوحة الثانية فهي اللوحة السادسة من لوحات الثورة الجزائرية التي تشخص ما حدث يوم الاستقلال . واظن أنني بقراءة هاتين اللوحتين

---

1 – عبد الله بن حلي / وسام الخلود / تحت الطبع

أكون قد ألممت بموقفين اساسيين من مواقف احداث ووقائع هذه الاوبيريت :

التاريخ :

– ثورة الاحرار ثوري وابعثي الفجر الجديد
هاهو الشعب يلبيك بمليون شهيد
والملايين تفديك اذا شئت المزيد

الثائر الملغم :

– حكم القضاء بحكمه يا اخوتي
قدمي ملغمة وحانت ساعتي
لا تفزعوا لا تفزعوا وتقدموا
لن ارفع الاقدام حتى تسلموا
فلتعبروا بسلامة وامان
واذا وصلتم فاهتفوا بلساني
" لك قبلة يا كعبة الشجعان
من ثائر سيموت بعد ثوان"

يتصدر هذه اللوحة (17) مشهد قصير استحضر فيه الشاعر قرار التاريخ القاضي بحتمية سطوع فجر الحرية بعد ثورة الاحرار ، واعتزازه بالثوار الذين لبوا دعوة الجهاد وتسابقوا الى تقديم ارواحهم أضحية في اعياد الفداء المتلاحقة .

ثم يأتي المشهد الاساسي في اللوحة ، وفيه يجسد الشاعر اروع مثال للتضحية قدمه الشهيد في سبيل ان تحيا الجزائر حرة طليقة يردد ابناؤها مل ء حناجرهم :

" عاشت لنا ارض الجزائر   عاشت لنا ارض الجزائر"

وقد لب الله دعوة الشهيد ، فكان النصر ، وكان الاستقلال ، وجاء

التاريخ في موكبه العظيم ليلقي كلمة الوداع الاخير أمام الشعب الجزائرى الجريح ويبلغه رسالة ابنائه الشهداء الذين قهروا المكان وسجد لهم الزمان ،فاستحقوا ان يدخلهم حارس الملكوت في (حرم الخلود)

لقد وطئت قدم الشهيد لغما فكان اللغم ايذانا بنهاية حياته وينبوعا جديدا في حياة اخوانه الفدائيين . انها عملة فريدة تتعامل بها الالغام ، بل هي لغة خاصة تتفاهم بها الالغام ... انها لغة الموت :

— فهل أفزع اللغم شهيد الجزائر او اخافه ؟ ام كان اللغم هو الخائف المفزوع ؟

قال الشهيد محمسا اخوانه المجاهدين — وقد غاب عن عينيه بصيص الامل في الحياة :

" لا تفزعوا ، لا تفزعوا ، وتقدموا

لن ارفع الاقدام حتى تسلموا (17)

وقال اللغم متحديا الشهيد :

انك " ... ستموت بعد ثوان (17)

فقال الشهيد ،وهو يصارع آخر لحظة تفصل بين الحياة والموت :

سيصرعك ولدى (7) ،ويؤدى الامانة (12) .

كان الشهيد يعرف ان اللغم لن يزول بدون تضحية ، فقدم مهرا باهرا لعروس الموت انه اكثر من مليون ونصف من الشهداء ، سحروا كلهم حارس الملكوت ، باقبالهم — مبتسمين مهللين — على لهيب الموت :

" اني ليسحرني وميض البرق يلمع في الظلام

ومواكب الثوار تزحف للمنايا بابتسام (3)

قال احد الفدائيين:

" نطهر الارض الحبيبة بالمنون

ونكون مثل الشمس في عزالضحى او لا نكون (9)

وقال آخر :

لا نبالي بالمنايا ولا نخشى الردى

ونغني للدنى كلما الموت بدا

وطن عاش لنا وسيبقى ابدا (5)

فما كان من حارس الملكوت الا ان قال لهم : طوبى لكم ... أن شوقي لشم عبير دمائكم كشوق الصحارى للغمام (3)

لقد لب الاميرعبد القادر نداء محاربة طغيان الموت الدخيل (5) وزحف المقراني بجيشه مرددا : لن اموت دون ان احطم عاتية الجبار (7) ، وتسابق اولاد سيد الشيخ فرموا بانفسهم في ساحة الوغى مرددين :

— نحن " السابقون الى الطعان اذا اتى يوم الطعان

ونحن " الساهرون على السلام اذا بدا منه الامان (8)

ولحق بهم ابن باديس يطمئنهم بان الشعب كان ولازال طاهرا ، لم يدنسه الاستعمار برجسه : (10)

شعب الجزائر مسلم   والى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله   او قال مات فقد كذب

او رام ادماجا له   رام المحال من الطلب

يا نشء انت رجاؤنا   وبك الصباح قد اقترب

... وكانت النهاية المحتومة ميلاد فجر جديد ، وعجز الاستعمار عن طمس الشمس " في عز الضحى "

انه مركز التقاء الموت الشريف بالحياة الكريمة : لبى الثوار صوت الجهاد وكانت الفرضية تقول : اما بقاء شريف او موت اشرف (نحيا كراما او نموت كراما) (16) .

ذلك بصورة مختصرة ما قد يشتم من اريج هذه اللوحة الساطعة ، اما اللوحة الثانية فيشخص الشاعر فيها مشهد عودة فيالق المجاهدين بعد غيبتهم الطويلة وفرحة الشعب الذى هرع من كل صوب ليرحب بمجاهديه الابطال .

غير ان ما تشخصه هذه اللوحة لا يتوقف عند بهجة استقبال المجاهدين وفرحة الشعب بعودة السلام الى الوطن ، وانما هي تصور ايضا موقفا آخر ، انه موقف أم الشهيد في وسط جمهور المستقبلين ، وهي تتفرس محلقة في وجوه العائدين باحثة عن ابنها الضال : بعدما تفرق الجمع الغفير وجدت العجوز نفسها وحيدة تستطلع الدرب وتناجي القدر الذى فرق بينها وبين وليدها : (20)

التاريخ :

— وترقرقت شمس الحياة بدفئها فوق الربوع
وترنم الشعب الابي بنصره رغم الصدوع
عين رأت نور الضحى فتألقت مثل الشموع
واشتاقت الاخرى لمن غابوا ففاضت بالدموع

العجوز(تسأل التاريخ) :

— يا سيدى أوَمَا رأيتَ فتى ملك الحسان بسحره الاسمر
له جبهة منها الشروق يطل وشامة في خده الايسر ؟

التاريخ :

— لا تشرقي بالدمع سيدتي فتاك من سعد الزمان له
فهنا وشاح المجد كله وهناك نور الله ظلله

التقت فرحة اللقاء بخيبته : فرحت العجوز لما رأت حشود المجاهدين تتوافد على الساحة العمومية ، وحزنت عندما أدركت أن وليدها غاب — الى الابد — عن الحضور ...

وبهذين الموقفين اكتملت أطراف قصة الشهيد وأمه ، وتجمعت مواقفهما لتواجه جبروت القدر ، متحدية عواقب كل صروفه .

تجمع هاتان اللوحتان بين اقبال الشهيد على الموت مبتسما وزغرودة الام الباكية على فقيدها . فلقد ودعت الام وليدها — بحرارة اليأس والامل — لما صمم على صعود سلم الفداء : (تطلق الام زغرودة باكية وتعانق ابنها فرحة باكية) (14) .

اكد التاريخ ان الشهيد قد جمع — في جعبة مسيرته النضالية — بين مجد الدنيا وعز الاخرة ، ثم وضع بين يدى أم الشهيد ساعة جيبية ، كانت آخر ما تبقى من ابنها وانصرف . جالت الام بخيالها في الفراغ الذى خلفه غياب ابنها في ساحة وجودها ... ترقرقت دموعها .. مسحتها بكفها وانصرفت لتضع اول خطوة في ساحة الاستقلال ...

شاء القضاء بحكمه ان يدرك البطل وقت موته ، ليودع رفاقه ويؤكد لهم حلول اجله :

قدمي ملغمة ، وحانت ساعتي

وشاء الشهيد — بعزيمته — ان يحيا تلك اللحظة الحرجة ليتناقلها التاريخ عبر فيافيه حتى تسلمها الاقدار لامه الحنون ، فتتمزق عليها وتغص بالبكاء .

يبدو ان هناك مفارقة ما تجمع بين هذين الموقفين اللا متعادلين : موقف الشهيد وهو يودع آخر لحظة في حياته ، وموقف الام وهي تستقبل آخر لحظة تسترجع فيها وجودها الماضي .

كانت اللحظة الاولى ساعة البين الابدى :

ساعة الصفر أطلت تنادى للنزال ... (5)

وكانت اللحظة الاخيرة ساعة اللقاء الابدى :

(فكلل حارس الملكوت رأس الام بأكاليل الورود وزين صدرها بوسام للخلود) (27)

ودع الشهيد أفق الوجود بالقاء آخر نظرة على ساعة حياته ليستقبل سعادة الشرف ودوام الفخر ، وودعت العجوز ابنها بمعايشتها لآخر ساعة ولد فيها الشهيد الوفاء .

أقسم الشهداء بأن لا يعودوا قبلما يحطموا عاجية (ساعي الموت) (12) :

— لبيك يا صوت الجهاد   لبيك يا صوت البلاد
هي وقفة فوق السحاب   أو رقدة تحت التراب (14)

وقد شاءت ارادتهم ان يحققوا — رغم رقدتهم تحت التراب — لقاء الوداع الذى خاب (رعاة الظلام) (11) في قطع صلاته .. وعاش جيل مابعد الشهيد يردد (فوق السحاب) :

(.. الى الامام ..) (25)

الخاتمة

... وبعد .. فرغت من قراءة هذه القصائد ، وانا احمل في ذاكرتي نكرة طالما خالجتني ... لقد خرجت بملاحظة مؤداها ان الشعر الجزائري المعاصر يتصدر - في رؤيته للواقع - كل النشاطات اللغوية الاخرى . فهو - رغم نزره الذي عطل عملية اقتحامه للساحة الثقافية - قد تخطى الافاق المعاصرة في تخميناته (العقل - سياسية) وتجاوز كل المشاريع المستقبلية بتطلعاته (الخيال - واقعية) .

فلا غرابة اذن ، ان يعيد الشعراء الجزائريون المعاصرون المقولة القديمة (الشعر ديوان العرب) ، فالشعر الجزائري المعاصر - وهو سليل الشعر العربي القديم - سجل حي لماضي الجزائر وحاضرها ومشروع مفتوح لمستقبلها ، فقد سجل كل ما وقع ، وشخص ما يقع ، وتنبأ لما سيقع ، وهذا عمل لا يمكن ان يناط به غير الفن .. والشعر فن .. بل الفن شعر ..

قائمة المصادر

عبد الله (ابن حلي) وسام الخلود / مخطوط تحت الطبع

عمر (ازراج) وعرسني الظل / ش.و.ن.ت. الجزائر 1984

محمد صالح (باوية) اغنيات نضالية / ش.و.ن.ت الجزائر د.ت

حمري (بحري) ما ذنب المسمار يا خشبة / ش.و.ن.ت الجزائر 1981

سليمان (جوادي) قصائد للحزن واخرى للحزن ايضا / م.و.ك الجزائر عام 1985

بوزيد (حرز الله) مواويل للعشق والاحزان / م.و.ك الجزائر 1985

احمد (حمدي) قائمة المغضوب عليهم / ش.و.ن.ت الجزائر 1980

محمد (زتيلي) فصول الحب والتحول / ش.و.ن.ت الجزائر د.ت

عبد العالي (رزاقي) اطفال بورسعيد يهاجرون الى اول ماي / ش.و.ن.ت الجزائر 1983

من يوميات الحسن بن الصباح / مطبعة لافوميك د.ت

محمد الاخضر عبد القادر (السائحي) واحة الهوى / ش.و.ن.ت الجزائر 1973

اغنيات اوراسية / ش.و.ن.ت الجزائر 1979

مصطفى (الغماري) اسرار الغربة / ش.و.ن.ت الجزائر 1982

اغنيات الورد والنار / ش.و.ن.ت الجزائر ط1 عام 1980

احلام (مستغانمي) على مرفأ الايام / ش.و.ن.ت الجزائر 1972

عياش (يحياوي) تأمل في وجه الثورة / ش.و.ن.ت الجزائر 1983

الفهرس

أنجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية بن عكنون ــ الجزائر